# ثنائيات القدر

قصص قصيرة

سامية كمال محفوظ

# ظلال

اصطففن كعادتهن،نفس الملبس ، الابتسامة ، لا تستطيع تمييز أيٍّ منهن في شيء ، يقفن في ثبات خلف الفرقة الموسيقية ، الكل يتماه لينفرد البطل ، يأتي المطرب أو المطربة ، فهذا هو المتغير الوحيد ، هو الوحيد الذي ينال كل شيء ، الانفراد ، الثناء ، التحليق في سمائه الخاصة.

تبدأ الفرقة بالعزف ثم المطربة التي تجلى صوتها مع تصفيق الجمهور ، ثم جاء دور الصف المتراص كي يخرج صوته في تناغم ، ولكنه لم يحدث ، لم يخرج أي صوت من حناجرهن المستهلكة ، يحاولن ، خاصةً مع التفات الجميع إليهن ، ربما تلك المرة الأولى التي يلتفت إليهن أحد ، رهبة ذلك زادت من خرسهن ، تعالت الموسيقى ، حاول الصف الآخر من الرجال الغناء لكن أصواتهم جاءت مضطربة ، تداركت المطربة الموقف ، كأن شيئًا لم يحدث ، انتهى العرض،نظرت إليهن المطربة بازدراء ثم انصرفت ، لأنهن بخطئهن هذا سلبوها متعة التميز الأوحد ، ذهب الجمهور وهو يذكر ذاك الصف الأخرس!

الفرقة بقيت كما هي ، ربما لأنها تخشى أن يحدث لها يومًا ما هذا الخرس ، نظر الجميع إلى الصف الذي يحاول جاهدًا تجاهل تلك النظرات المتسائلة ، نفس السؤال الذي يجوب أعماقهن أيضًا ولكن ما من مجيب.

تفرق الصف كل منهن تحاول أن تكتشف أمرها ، أن تجيب عن أسئلتها ، أن تعلم إذا ما كان الأمر يخصها هي فقط أم تراها عدوى أصابت الصف!

إحداهن تسللت إلى مقاعد الجمهور نظرت إلى المسرح ، جلست على أحد المقاعد ، تذكرت حين كانت طفلة ذات شعر أسود قصير ووجه بريء ، ترتدي فستانًا قصيرًا وتمسك بيدها (الميكروفون)، تبتسم حينما تشعر بوجود جمهور إلى جوارها ينصت لذلك الصوت ويصفق له ، هذا كان الأمس ، ما أجمله وما أبعده!

فهي الآن تجاوزت الأربعين ، شعرها الأسود أصبح خليطًا رماديًا ، حتى صوتها لم يعد له هذا البريق.

فتاة أخرى ما زالت فوق المسرح في مكانها تحاول أن تُخرج صوتها ولكن بلا فائدة،حاولت الابتعاد ، حين غادرت المسرح انطلق صوتها عذبًا ومنتشيًا.

هل المسرح يكبل صوتها أم تُراه الظل من يفعل ذلك!

**شابة في بداية العشرينيات ، جسدها نحيل , ترتدي نظارة تخفي لون عينيها وهيئتها ، لمحت عازف الكمان الذي يشبه أبيها كثيرًا. كم كان فخورا لرؤيتها على هذا المسرح وكم أسعدها ذلك . تتغير ملامحها حين تذكر إلحاحه الفترة الماضية كي يأتي لسماعها.**

**ظلت كل منهن تتذكر حالها بالأمس وما وصلت إليه اليوم، اكتشفن جميعًا أن إحباط أحلامهن هو السبب وراء تمرد أصواتهن.**

**لاحظ العازف نظرات الشابة إليه ، أمسك كمانه وبدأ بالعزف،نظر إليها نظرة تشبه نظرة أبيها. وجدت نفسها تمسك (الميكروفون) وتتقدم المسرح وتبدأ بالغناء. تبع عزف ذلك الرجل عازف آخر ، تقدم الصف إلى الأمام ، كلهم بالتدريج بدءوا بالعزف والغناء ، بشكل تلقائي وربما عبثي أثاروا مَن بالمسرح لمشاهدة تلك الحالة الاستثنائية.**

**رُدت إليهم أرواحهم وأصواتهم وأحلامهم ، سمعوا أول تصفيق خالص لهم مائة بالمائة ، ربما للمرة الأولى يشعر كل شخص منهم بأن التصفيق له وحده .**

**بعد عدة أيام تم الإعداد لحفلة ، مثل تلك التي باءت بالفشل من قبل ، لكن في هذه المرة لم يكن الفشل من قِبل الصف ، بل من تلك المطربة. بمجرد أن بدأت الغناء شعرت أن كل ما حولها يطغى عليها ، الموسيقى ، صوت الصف ، ربما شعرت أن نشوة الجمهور أيضًا تطغى على صوتها ، توقفت عن الغناء ، نظرت إلى الخلف ، ثم أشارت إليهم بالتوقف ، انصاع الجميع لطلبها.**

**استدارت وبدأت بالغناء بمفردها ، لم ترَ التصفيق الذي اعتادته ، تركت المسرح ، توقفت عند نهايته متخيلة زوبعة يفعلها الجمهور لتغني من جديد ، لكن ذلك لم يحدث.**

**تقدمت الفتاة ذات النظارة وانطلق صوتها الذي انتظر ذلك طويلاً ، تجلى صوتها وهي تتخيل أبيها في كل الرجال ، عادت إلى الصف ، أتت أخرى.**

**أيضًا العازفون تقدموا المسرح واحدًا تلو الآخر ، الجميع اختبر لحظة الوقوف منفردًا ، نظرت المطربة إلى ما يحدث ، الفرقة ، الصف ، كلمات ليس لها معنى الآن ، فهي حالة ، لا يوجد شيء بذاته ، الجميع يتبادل الأدوار،أرادت أن تنسحب ، لكنها دون أن تدري وقفت في الخلف بجوار إحداهن في الصف!**

# ثنائيات القدر

**صحوت من نومي ينتابني شعور غريب بالسعادة , والأغرب من ذلك رغبة عارمة في الذهاب مبكرا إلى العمل !**

**أمشط شعري بعد أن ارتديت ملابسي , ابتسم ساخرا من صوت المنبه , هذا الذي لم أفعل شيئا في حياتي غير إغلاقه , وبغض صوته , هل جُننت اليوم حتى أصحو قبل أن يجتذبني رنينه المزعج من عالم الأحلام , قبل أن نتجاذب الغفوات والتأجيلات غير المتناهية حتى يمل أحدنا ويرضخ للأمر الواقع مرغما .**

**أتجاوز الشارع اركل الحصى بانتشاء مراهق , الق التحية على الجميع مما يثير دهشتهم , ماذا حل بي , لا أعلم. لمَ أرى الكون مخملي اللون !**

**مر بجانبي ثنائي ما لفتني لوجودهما هذه السعادة التي غمرتني وجعلتني ارغب في احتضان أي شخص وربما شيء أقابله , لكن جميع من حولي ثنائيات , استقرت عيناي على ثنائي قادم بتؤدة من بعيد .**

**امرأة عجوز تستند عليها امرأة أخرى حيرني أمرها وجه طفلة وجسد امرأة , تمسك حطام دمية , متشبثة بها في سعادة تشوبها مسحة من قهر , شريكتها أيضا لم تخلو نظرتها من هذا القهر , لكن ذلك الاستناد على الأخر يجعل ملامح كل منهما راضية , مسالمة وراضخة لأمر القدر.**

**اجتاحني خليط من المشاعر , جعلني انظر فقط إلى الأمام ،أركز بصري على ( الميكروباص) كي أذهب إلى عملي .**

**جاء حظي في الكنبة الأخيرة , ذلك المكان الذي يسع العدد الذي يقرره السائق , لكنه أتى كاليوم فريدا من نوعه , ظللت ارمقه منذ أن وضعت قدمي في الميكروباص , متفحصا كل الكراسي حتى انتهيت إليه , جميع الأماكن مليئة بالثنائيات , ولم يتبق لي غير هذا المنفى , يبدو أن هذا قدري . شيئا اسمه الوحدة , ربما لأنه اسمي !**

**جلست بجوار النافذة تاركا ملامحي لنسمة الهواء , قام السائق بتشغيل أغنية ل أم كلثوم , هذه المرأة التي لم تترك ثنائيا من تحت قبضتها , لُقبت كثيرا بالغريب لأنني لم أسمع لها يوما , فكرت حين وجدت الجميع كذلك , هل من لم يسمع لها لم يحب حقا ؟!**

**أم أن الأمر ذائقة فقط وهم يبالغون ..**

**تناهت إلى سمعي أصوات انتصب لها شعر رأسي , ماذا يريدون أن يفعلوا بي ؟**

هذا الثنائي القريب مني , رجل يبدو أربعيني وامرأة في عقدها الثالث , صوتهما يقترب من مذيعين الراديو , أصوات رنانة تجتذب أذني الفضولية , غنجها يعجبني ويثيرني , رزانته تتجلى حتى في ضحكاته معها .

بجوارهما ثنائي قلق , الفتاة تتلفت حولها والشاب لا يستطيع التحكم في مشاعره الجلية في تصرفاته وربما في يده التي لا تفارق جسد حبيبته , تبعد يده بتردد واضح فيراه إذن بالاقتراب أكثر .

أتنهد وانظر من النافذة مرة أخرى , كثيرون يشيرون إلى السائق لكنه لم يهتم لأمرهم , ربما لأنهم وحيدون مثلي , لكنه وقف ل هذه المرأة. لا أعلم لماذا ؟

تجاوزت الثنائيات وجلست بجانبي , ليس بجانبي بالضبط إنما في أخر الكنبة تنظر من خلال النافذة الأخرى , أرى رعشة بيدها مما دفعني للنظر إلى وجهها , سمراء ذات وجه ممتلئ , غسلته الدموع من اثر مساحيق التجميل , بدا جذابا بالحجاب , فكرت كيف تكون وهي بكامل أنوثتها , ابتسمت لأنني علمت الآن سر كل هذه الأغاني التي تتغزل في سمراء اللون .

نعم أخذني جمالها , وحزنها أيضا , حاولت الاقتراب لكنني ترددت , ارمقها صامتا , تنتحب وتصمت , تنظر عبر النافذة ثم إلى هاتفها , ثم تعود لذلك الانتحاب , أصاب المكان لبعض الوقت مسحة من الشجن , ثم عاد كل امرئ لما يفعل ...

السائق يدندن في سلطنة لا تليق بهيئته العشرينية , والثنائيات تتهامس وتتلامس في هيام , ولست أملك غير النظر والتحسر على حالي وحال تلك الباكية , زاد الطين بله ما أخرجني من تحسري , صوت السائق العالي الذي أعاده إلى شبابه ..

(أنتي يا بت) ..

تعجبت لهذا النداء وتخيلت أن هذا مقدمة عراك , لكنني لمحتها , تلك الفتاة التي مرت بجوارنا ,فتاة لم تطأ العشرون بعد , بعيونها الناعسة وهبته نظرة مليئة بالغنج وابتسامة ذات معنى , جعلته منتشيا مما دفعه إلى الصراخ ثم الاندفاع بالسيارة .

حينها أغلق أغنية أم كلثوم , وعاد إلى رشده عن طريق أغاني المهرجانات وهو يردد بصوت عالٍ ( أتنين ملهمش أمان الفرامل والنسوان )

اختفت الثنائيات فجأة وكأنه حلما , تلك الباكية آتاها هاتف رد إليها ابتسامتها , بعدها تفقدت هيئتها ووضعت احمر شفاه ثم رمقتني بنظرة جعلتني انظر إلى السائق منشكحا حد البلاهة .. سبقتني هي , تخيلت أن هذا نداء لي , فنطقتُ بلعثمة ..على جنب يا أسطى .

# النـافذة

**منذ أن أصبت بالعجز إثر حادث وأنا لا أفارق النافذة ، كنت في العاشرة حين تعرفت من خلالها على (نور)، طفلة ذات شعر ذهبي ، عيناها ضيقتان ، وجهها دائمًا مبتسم ، دائمًا ما تحكي لي عما تراه ، كانت روحي التي تحلق خارج هذا المكان.**

**لم تحبها أمي يومًا ، ترى أنها تفسد خيالي ، وأن وجودها سيذكرني بعجزي ، لا تعلم أن وجودها هو ما ينسيني ذلك.**

**أتت يومًا وفي يدها كرة صغيرة ، نظرت إليّ وهي تشير إليها وتبتسم ، امتقع وجهي ، بينما هي ابتعدت ، ظننت أنها ستغادر ، وجدتها التفتت وألقت إليّ بها ، شعرت حين أمسكت بالكرة كمن حقق انتصارًا.**

**وكأن تلك السعادة لا بد أن تليها مرارة ، لم أر نور بعدها ، ظللت أنتظرها كل يوم ، لكنها لم تأتِ.**

**ظللت أراقب تصرفات المارة لعلي أنسى نور ، أراقب الوجوه الباسمة ، والعابسة ، وأفكر حينها لمَ يعبس من يملك الحرية!**

**رأيت وسط الزحام شابًا وفتاة تتشابك أيديهما ، خفق قلبي حينها ، شعرت باختلاج شفتيها حين اقترب منهما ، مكانهما المفضل بالقرب من النهر ، يعطيان ظهرهما للمارة ، لا يريدان لأحد أن يشاركهما الحب سواه ، لكنني من ظهرهما كنت أشعر بما يفعلان ، وأسمعهما ، ولا تسألني كيف ، لأنني لا أعرف كيف!**

**حتى رأيتها ذات يوم تقترب وسط الزحام ، وجه مميز تغير كثيرًا ، يرتدي ملابس فضفاضة ، ونقابًا ، مجرد رداء أسود يتحرك ، لكن تلك العين الضيقة وإن غابت عنها الابتسامة ، لن أنساها.**

**-تغيرتِ كثيرًا يا نور.**

**-وأنتِ أيضًا.**

**-ماذا حدث لكِ. ولمَ اختفيتِ؟**

**-لقد تزوجت... (تتلفت حولها) .**

**إنه يمنعني عن كل أصدقائي ، لا يتركني أذهب إلى أي مكان بمفردي.**

**-أنتِ ما زلتِ طفلة ، كيف تتزوجين ، بل وتتزوجين شخصًا يفعل بكِ كل هذا!**

-ليس كل شيء بإرادتنا. سأذهب الآن كي لا يُكشف أمري ، كوني سعيدة ، لا تفقدي طفولتك مثلي ، هل أحببتِ يا سناء؟

-أنا لم أرَ أو أتحدث مع أحد.

-سأراكِ مرة أخرى ، فكري في الأمر حتى نلتقي.

كلمات نور فتحت أمامي بابًا لم أفكر به من قبل. كيف أحب يا نور ، من سيحب عاجزة مثلي ؟ أبتسم حين أتذكر الشاب والفتاة.

هل أجلس مكانهما يومًا ما ؟ فقدتِ عقلكِ يا نور وستفقدينني إياه.

فتحت النافذة لأجد أمامي الشاب وحده ينظر حزينًا إلى النهر -أو هكذا ظننت ، أخذت أنظر إليه حتى جاء موعد انصرافه.

أصبحت على علم بتوقيت كل ما يحدث في الشارع. نظرت إليه ، لا. أنا لا أحبه ، إنه يحب أخرى ، سامحكِ الله يا نور.

منذ ذلك الحين يأتي بمفرده ونتبادل النظرات والبسمات ، حتى اقترب مني ذات يوم ، شعرت بوجيب قلبي يكاد يعزف لحنًا مزجت فيه كل ألوان السعادة.

حين اقترب أردت أن تقع عيناه على الكرسي الذي أجلس عليه قبل أن تقع على عيناي رغم اشتياقهما إليه ، لكنه تجاوزني ، لم يقترب ليتحدث إليّ أو مجرد النظر ، يبدو أنه وجدها وأنهما تصالحا الآن ، لم أره بعد ذلك. ولم أعلم معنى نظراته إلي !

-لا بد أن أنساه الآن ، أن أنسى ما لم يحدث!

-سناء. كفي عن الحديث... (هكذا حدثتني أمي بصوت غاضب).

-أنا أتحدث إلى نور يا أمي... (وجهت حديثي إلى نور عبر النافذة).

-أمي ما زالت غاضبة من صداقتنا.

-يبدو أنني لن أراكِ ثانيةً يا سناء ( قالتها نور وهي تبهت كما الشمس التي تؤول إلى أُفول )

-لمَ تقولين ذلك؟

-أشعر بذلك فقط.

-(يعلو صوت أمي من جديد)... سناء لمَ تحدثين نفسك ، لقد تعبت من هذا الهراء.

-لقد أخبرتكِ يا أمي ، كنت أتحدث إلى نور عبر النافذة.

-لا يوجد أحد يا سناء ، لا توجد نافذة في الغرفة.

**حينها فقط شعرت بالعجز ، دائمًا كانت هناك نافذة تفصلني عن الحياة ، والآن أُغلقت وإلى الأبد.**

# ترانزيت

**بعدما صرت حرا طليقا ,أصبحت أكثر تعمقا فيما يدور حولي , تسعدني نسمات الفجر , والرضا الذي يبدو على وجوه البشر المارون من حولي , وجوه نديه وباسمة , دون قصد تخرج بسماتهم لتهون عليهم وعلى من حولهم , ما يجري بداخل الجميع..**

**اكره حين تبزغ الشمس , تسري حرارة في جسدي تجعلني ابغض الجميع , خاصة ذلك العجوز المتبختر نحوي , في كل مرة أراه قادما هكذا , بهيئته الرثة , ووجهه العابس وسيجارته التي ابغضها أكثر من أي شيء , أدعو الله أن يحول بينه وبين الوصول إلي أي شيء..**

**يقف عند المطعم المقابل , ممسكا بقرطاس فارغ من الورق وفي اليد الأخرى طبق الفول المحوج وبالطبع لا ينسى البصلة الصغيرة التي يعتبرها فاتح الشهية الخاص به !**

**ينظر باشتهاء إلى المقلاة المليئة بالزيت والتي يرص فيها الرجل أقراص الطعمية النيئة , ثم يختنق من رائحة الزيت فينظر لي بازدراء ثم يبصق..**

**مالي والزيت لا أعلم , أكاد اجزم انه يراني سبب كل لعنة في هذا الكون , لا أستطيع الاعتراض أو مناقشته , لذلك أفضل الصمت . أفضله أم أنني لا أملك غيره !**

**ها قد وصل واعتلاني , نعم تلك هي مهمتي , يجلس مسترخيا غير مهتم ل معاناتي , يفترش الطعام بين فخذيه , بعد أن يخلع حذاءه ويضع قدميه فوقه , على سبيل التمادي في الراحة..**

**لست أنا من يأكل , لكن يظل كل ما يأكله عالقا بي , يكترث هو بأمر الطعام , ويترك لي أمر الرائحة التي لا أعلم كيف يأتي بهذه الشهية للطعام وبجواره هذا العفن!**

**ينتهي بإلقاء الفضلات التي شكلت هرما بجانبي , حمدا لله انه اليوم الذي يأتِ فيه عم (رحيم ) ,ذلك الرجل الذي يأخذ هذه القمامة رأفة بحالي , مقابل أن يحصل على قسطا من الراحة واحتساء كوب من الشاي...**

**يفعلها ذلك الغبي , أظنه لا يأخذ من سيجارته هذه أنفاس بقدر ما احصل عليه أنا من لسعاتها ,يبدو انه ينساها , ما أن يشعلها حتى يشرد في أمر ما , تنهيه تلك اللسعة التي تصيبه معلنة انتهاء السيجارة , لا يرميها سوى بعد أن يأخذ أخر نفس ثم يوليني ظهره مودعا إياي ببصقه أخرى كأنها تحيته لي!**

أخر النهار , الظلام الذي يخيفني , والوحدة التي تصيبني , يهونها أحاديث المارة , اسمع صوت نسوى , يجتذب انتباهي , تضحك بشكل مبالغ فيه مما حيرني , هل هي من اعرفها أم لا..

وقفت لبعض الوقت مع احدهم ثم أشار إلي ورحل , اقتربت بعدها نحوي , أخرجت من حقيبتها شيئا ما وضعته فوقي ثم جلست , هذا الشيء برائحته العطرة وملمسه الناعم دغدغ حواسي , أحياني بعدما أمَتني الشارع وهذه القذارة العالقة بي , ردتني هذه السعادة إلى بدايتي , وربما ل بداية نهايتي...

هذا ما أفاقني , ملمسها الذي شعرت به من طرف أصبعها الذي خانها ولمسني رغما عن هذا الحائل الذي وضعته بيننا , شيئا ما أفزعنا سويا , انتفضت على إثره ..

وقفت بعيدا تنظر لي وتنتحب , لتدثر نفسها بذلك الشال , تصبح الذكريات السيئة اشد وطأة من جميع موجات البرد القارصة , رعشتها ليس منها مفر ولا لها دواء..

جاء الصباح وجاء معه ذلك العجوز , لم يبصق , هيئته مهندمة , جلس لحظة ربت علي ثم انتظر عربة ما حملني عليها ثم رحل مودعا إياي بابتسامة فهمتها فيما بعد...

جميعنا انتهى دوره , قد شحذني بذكرياته , كي أفرغها في تلك المرأة , ربما لأنني كنت شريكا فيما حدث .

جميعنا استراح الآن , نظرت إلى السائق من خلف الزجاج ثم إلى الطريق الذي تركته خلفي وربما هو من تركني , نفس السائق ونفس العربة وذات الطريق , جئت شيئا ورحلت شيئا آخر ربما هذا هو ناموس الحياة , وجدتني سأنتحب كما يفعل البعض , لكنني تذكرت أنني مجرد كرسي , حينها نظرت إلى قدمي وتنهدت....

أخيرا سوف أصلح قدمي المكسورة.

# تخاريف دائرية !

يد تتوقف عن كتابة شيء ما ، ثم تفتح درج المكتب وتدس الورقة بداخله ، له مدة غير قليلة يفعل ذلك دون إدراك ، مجرد اعتياد ، لكن هناك شيئًا أجبره أن يمعن النظر بداخل الدرج ، وجد بعض القصاصات الورقية فقط.

-كيف حدث هذا ؟ وما تركته من قبل... أين ذهب ، كيف تحول لقصاصات ؟!

قام عن كرسيه وجال ببصره في أرجاء الحجرة التي نادرًا ما يفارقها ، بل إنه نادرًا ما يفارق هذا الكرسي والقلم والأوراق.

حجرة صغيرة تبدو فارغة لولا وجود المكتب و سرير كبير رسم على نصف ملاءته خطًا ، نصف فارغ وفي النصف الآخر بعض الصور ، نظر إليها ، يبدو أن هذا منعه من الاستلقاء ، أمسك كتابًا من هؤلاء الذين امتلأت بهم الحجرة ، جلس على طرف السرير.

-بمَ شعر أول من أمسك بالقلم ليكتب عن شيء ما ؟ أي شيء سيكتبه بطبيعة الحال سيكون جديدًا.

-من هو البائس ؟ الذي يبدأ من الصفر أم ذاك الذي انتهت أعداده ولا بد أن يخلق أعدادًا جديدة ، أو يبدع في ترتيب الأعداد فهذا ما يملكه!

محظوظ من بدأ من الصفر ، جاءته الحروف شبقه وما عليه سوى الاستجابة لها ثم يشكلان ثنائيًا يتلاشى في سطور مبدعه ، ربما لأنه مبدع لكن أيضًا لأنها بكر.

-هل ابتليت بهذا الزمان ، حيث كل الكتب قالت كل شيء ، الحروف أصبحت عجوزًا مجرد قبلة ترهقها ، الحياة أصبحت عاهرة ملها الجميع .

يرمي السيجارة التي كادت تلسعه ثم يدهسها بقدمه العارية ، ينتشي بتلك اللسعة التي يتعمدها.

-لن أكتب عن النهاية ، كل من كتبوا امتصوا كل الأفكار الخاصة بالحياة والموت.

يقهقه ثم ينزل على الأرض فاردًا ساقيه بين الكتب والأوراق وأعقاب السجائر.

-فقط تركوا لنا ما بينهما نهذى فيه. ما بين الحياة والموت.

ينظر إلى المكتب الذي اندفع إلى درجه ليفتحه من جديد.

-قصاصات... ما بين الحياة والموت مجرد قصاصات في درج مغلق ، والحياة والموت يملأن كل هذه الكتب!

**- لقد تعبت اليوم من هذه الترهات ، سأخلد إلى النوم ، فهناك عالم آخر ينسينا هذا كله في دنيا الحلم.**

**يتمدد على جانبه محاولاً ألا يتخطى ذلك الحاجز الوهمي ، ناظرًا إلى الصور ومتحدثًا إليها.**

**-ماذا لو لم تكن هناك بدايات أو نهايات ، بماذا كنا سنشعر وعما كنا سنكتب؟**

**.....لا شيء يجيب**

**-لا تذهبوا بعقولكم بعيدًا. لست مجنونًا ، لكنني أفكر حقًا ، ماذا لو كان الأمر دائريًا؟**

**-أن نكتب عن أشياء لا تنتهي!**

**لم يبالِ بأن صوتًا ما أجابه ، يمد يده المرتعشة وكأنه يتخطى سلكًا شائكًا تمت كهربته وليس خطًا وهميًا ، يلامس الصورة.**

**-أتدركين ، حين يكون الأمر دائريًا ، ما كنتِ مجرد صورة الآن ، سوف نذهب لنعود ، الدائرة لا تنتهي وكذلك كل شيء.**

**ينظر إلى صورة أخرى.**

**-أنتِ من سيفهمني جيدًا ، لو كان الأمر دائريًا ما كنا نصفين الآن ، كنت سأغضب منك حتى أنتهي من جديد أحبك ، لن نكون وحيدين وتعساء لو كان الأمر دائريًا.**

**يطوي ساقيه ويحتضن نفسه كمن يحمي نفسه من عدو يحاول قتله.**

**-أنتم لم تروا ما رأيته وأراه كل يوم ، لا تدركون لمَ أكتب كل الأشياء ناقصة ، دون نهايات. أخشى الكمال ، حين يكتمل كل شيء لا بد أن ينتهي ، وتلك الكلمات هي ما بقيت لي ، كيف تنتهي مني أو أنتهي منها ، أعلم أنكم ستقولون : ولكنك تكتب غيرها ، هناك أيام لا أستطيع أن أكتب حرفًا فتؤنس وحدتي تلك الشخصيات المعيبة والأشياء التي تريد نهايتها.**

**نهض مفزوعًا يبكي ويضحك كمجنون.**

**-النهايات. ما بين البدايات والنهايات مئات البدايات والنهايات الأخرى ، ها أنا ذا أمسك عن شخوص أخرى نهايتهم ، يعتقدون أنني أعذبهم ، لا يعلمون أنني أعطيهم الخلود ، أن يحلقوا في سماء أبدية.**

**يأتيه الصوت مرة أخرى.**

**-دائرية!**

**يرتاب ويلتفت حوله ، يبتسم. هناك شيء آخر غير الحلم والنهايات المبتورة يؤنس وحدته.**

**-نعم دائرية. ولكن. أتجوز الدائرية في كل شيء؟**

**-كل شيء. هذا يتوقف عليك.**

**يجلس في منتصف الغرفة محدقًا في السرير.**

**-هذا ما يفعلونه بك. يقيدونك ثم يقولون أنت حر!**

**-سوف أحرر تلك القصاصات. لا بد لها من نهايات ، لا أحتمل أن أكون هكذا ، أن أحمل ألم الكون منذ بدء الخليقة وأنا لا أقدر على تخطي هذا الخط الوهمي.**

**يفتح الدرج فيجد القصاصات اختفت. والمكتب مليء بالأوراق البيضاء.**

**ينظر إلى كل شيء بتمعن خاصةً مع اختفاء الكتب والصور وحتى الخط الوهمي على السرير.**

**-هل هذه هي البداية... أم !**

# حين وهبني سرور .. السرور.

**ثم قالت له ( والنعمة ما قولت كده )**

**هذه الجملة وصاحبتها اللتان شاركاني أول ذكرى في حياتي الجديدة .**

**ذلك اليوم العصيب الذي اعتدت وربما أُجبرت أن أستعد له استعدادا خاصا , يوم قبض المعاش , رغم أنني ما زلت جديدا في هذا العالم , لكنني أصبحت مثلهم تلقائيا , أُصلي الفجر ثم انتظر أمام مكتب البريد , وحين تُفتح الأبواب , نشعر أنها أبواب الجنة وقد فتحها (رضوان) على مصراعيها , نرتب أنفسنا حسب توقيت مجيء كل واحد , قد ننسى في حياتنا كل شيء , سوى دورنا في الطابور , حتى تأتي لحظة وقوفي أمام تلك الكوة الصغيرة التي أراقب من خلالها الموظف العابس , لا املك حق الاعتراض , فحياتي في يده , يلمسها قبلي ويعدها وتصيبه لذتها , قبل أن أشعر أنا صاحبها بذلك , اشك أحيانا أن هذا هو سبب قلة البركة في الأشياء , مرورها على الكثير قبل أن تصل إليك !**

**أسير إلى البيت وأنا أتحسس المال في جيبي , لم تعد تكفيني هذه الجنيهات , بالكاد تكفي ثمن العلاج , ارمق هذا الشيء الذي امتلأت بيه المنطقة وهو يسير هنا وهناك , استعيذ بالله حين تراودني هذه الأفكار , كيف لشخص مثلي أن يصبح سائق ( توكتوك ) بعد هذا العمر .**

**على ناصية الشارع يوقفني أحدهم , التفت فأجده شريكي في السكن , نحن الاثنان نتشابه في الكثير , هو طرده ابنه إرضاء لزوجته وأنا هجرتني ابنتي من اجل حياتها ..**

**استحلفني ألا أغيب هكذا مرة أخرى , لم افهم سبب قلقه , هل يقلق بالفعل بشأني أم يخشى العودة إلى الوحدة مرة أخرى !**

**نسير متكئان على بعضنا البعض , يبتسم ببلاهة , واشرد أنا في أمر التوكتوك هذا , ما العيب فيه ؟!**

**أُخبر صديقي بذلك فيقهقه دونما سبب , مما يثير غضبي , الذي يخيفه دائما كطفل صغير , يضع يده فوق كتفي مهونا , ثم يخبرني ان كنت جادا ف سوف يساعدني في ذلك , له علاقات كثيرة في الشارع عكسي تماما ..**

**وقف أمام بيت ما مما أدهشني و أخذت الكزه وأشير إلي بيتنا فيقلد نظرتي العابسة ويقول لي ( أتقل )**

**اخذ ينادي بصوت عالٍ يا ( عبده ) ثم يكررها بنغمات وطبقات مختلفة , وأنا انظر حولي خجلا من أن يلاحظ أحدا ما يحدث وكأننا نرتكب جريمة !**

بعد نداءات استمرت ما يقرب من الربع ساعة استجاب هذا أل ( عبده ) شخص ما يرتدي (فانلة) حمالات بيضاء , شعره أشعث وذقنه طليقه , يرد علينا وقد ضم حاجباه وأغلق عيناه قليلا كي يستطيع تمييز من نحن , قبل أن يطلق وصلة شتائمه , حتى لاحظ أن المنادي صديقي , لم أقل انه ابتسم لرؤيتنا , لأننا أفسدنا نومه , ولا شيء يغفر لأحد إفساد نوم الآخر ..

لكن يبدو أن صديقي لديه بالفعل دلال عليه , أشار لنا ثم وجدناه أمامنا بقميص فتحت أزراره أو تفتقت .

لا أعلم ما جذبني في ما يرتده في قدمه , وشكل أصابعه الضخمة القصيرة , يحاول أن يقنع نفسه أنه أصبح بهيئة مرتبة حتى يمحو ذلك الانطباع في الأعلى .

يتثاءب بكثرة , حتى فعلنا ذلك ثلاثتنا معا , يحك رأسه وينظر بشفاه مدلى إلى صديقي منتظرا منه سبب إيقاظه على الصبح هكذا , يضطرب صديقي ويتلعثم حتى يجد البداية , ثم يلقي بها في وجهه , فتصبح النظرة من نصيبي , أدير وجهي إلى الشارع وما يحدث به , حتى أتفادى ما سوف يقوله أو يفعله , لكن إجابته كانت صادمة ..

_ غالي والطلب رخيص يا عم سرور

انظر له مندهشا وقد دليت شفاهي مثله , فيبتسم ويعطيني المفتاح وهو يخبرني ب مكان (التوكتوك) , ويطلب مني أن أُحافظ عليه , فأعده برقبتي أن افعل ..

أسير مبتهجا بذلك المفتاح , تاركا ورائي سرور يشكر الرجل على معروفه , فهو يفعل كل شيء نيابة عني , حتى انه لحق بي ليأخذ فلوس المعاش كي يدبر هو أمر كل شيء .

حين جلست على الكرسي أمام عجلة القيادة انتابتني رعشة كما رعشة ذروة النشوة , خاصة حينما وضعت المفتاح وانطلقت بعدها , سرت كثيرا وحدي متجاهلا هؤلاء الذين يشيرون إلي , حتى تذكرت أنني لست في نزهة , انه عمل ولا بد أن أحسن الصنع حتى لا أخذل سرور و هذا الشاب ..

أوقفتني امرأة , جذبني النمش الذي يعطي وجهها مسحة أوروبية لكن القالب لا يقبل أن يكون إلا مصريا , كانت تتحدث عبر الهاتف , وما أن ركبت حتى عادت إلى مكالمتها ..

_ لكن الأمر مختلف يا (كتكت) , حتى وإن قلت شيء , لم يجب أن تنقله ( بسه ) وتتسبب في غضب الناس مني ..

جذبتني هذه الجملة حتى غرقت معها في حوارها مع ( بسة وكتكت) , ومن المخطئ فيهم , ظل هذا الأمر يشغل تفكيري , حتى عدت إلى سرور حاملا أكياس فاكهة لم نتناول أيا منها

**منذ فترة , وجدت سرور وقد اعد أطعمة شهية , عظيم هذا أل (سرور) يفعل أكثر ما تفعله الزوجة , ربما لأن في عمرنا هذا لا نريد من الزوجة أكثر من ذلك .**

**يستلقي كلِ على سريره , وقد امسك بتفاحة يتغزل بها قبل كل قضمة , يخبرني سرور بما يحدث في يومه , لكنني أقاطعه في كل مرة لأحدثه في أمر بسة وكتكت ..**

**_ إن كنت تريد الحق ( بسه) أخطأت يا سرور**

**فيقهقه سرور كعادته حين يجدني أفكر في شيء أو متحمسا لشيء , لكنني أعطيه ظهري كي لا يفعلها ثانية , فيتحدث بصوت يكتم الضحك ..**

**_ لا تغضب , و ما رأي (كتكت) في هذا الموضوع ..**

**ابتسم واعتدل في جلستي وقبل أن أقول كلمة واحدة يكون قد غط في نوم عميق .أظل متمسكا بفرحتي ثم أفرد ظهري مرة أخرى على السرير مختلسا النظر إلى سرور الذي وهبني تلك اللحظة , داعيا الله أن تتكرر حتى أتحدث معها , إنها تحب الشكوى , وأنا كما يقال مستمع جيد ..**

**غير أنني بالفعل أحببت تلك الحكاية ومفرداتها الغريبة ربما لغرابتها وربما وهذا الأغلب لجمال من قامت بسردها , يخطفني عالمها وأحمد الله على ذلك لأنه أنقذني لأول مرة من سيمفونية سرور التي تصدر عنه وهو نائم ..**

# حياة تشبه دقات الساعة

**(لا نستطيع تغيير ما جُبلنا عليه) تلك الجملة التي تعد بمثابة قانون لي ..**

**أفتح عيناي بل أبحلق في الفراغ ليس لسبب غير أنني أريد النوم , استجديه ويزيد دلاله , الصوت الذي يصدر عن الساعة قديمة الطراز القابعة فوق رأسي يثير حنقي , لكنني لم أفكر يوما أن أغير مكانها , كانت تحبها أمي , سوف يحزنها أنني فرطت في شيء تحبه , حتى وإن كان هذا التفريط في تغيير المكان الذي أرادته ....أرى ذلك !**

**هذا هو المميز في الأمر استيقاظي على دقات السادسة صباحا , فهذه الساعة ذات صوت رنان , رغم كونه لا يقلقني سوى في السادسة , لا أعلم هل يصبح صوته أعلى في هذه الساعة , أم كما تقول أمي ... انه المنبه الداخلي ..**

**أول ما أفعله حين أفتح عيناي , أن أدخل غرفتها , التي تبدو وكأنها لم تفارقها أبدا , أقوم بتهوية الغرفة وترتيبها , لكن هذا الوقت ليس لهذه الأشياء , انه لأداء صلواتي بالقرب من صورتها المضاءة بالشمع الذي أحرص على تغييره وجعله مضاء دائما ...**

**أعتقد أن كل طفل يرى في أمه السيدة العذراء , لكنني أشعر أنها هي , في ملامحها الدقيقة وبسمتها الحانية , بل وفي كوني لم أر لي أب , هل أنجبتني وحدها ؟!**

**لكن بمرور الوقت حكت لي عن هذا الغائب , بل ملأتني بت , حتى تراه في ..**

**لذا كل يوم حين أقرر ارتداء شيء ما , تذهب يدي وحدها لذلك القميص الأبيض ذا المربعات السوداء والبنطلون الأسود القماش الذي يقترب وسطه من صدري والمراوغة التي أفعلها بالحزام ذا الجلد المتشقق كي يصبح مقاسي رغم أنني أرسلته للترزي كثيرا كي يصبح مناسبا لي , لكن بلا فائدة , ابتسم لرؤيتي بالملابس التي يحبها والدي , الذي عرفته من حكايات أمي ومن ملابسه ..**

**ارتديت الحذاء الأسود الجلد ذا البروز الرفيع الذي يؤلمني , لكنني أتذكر جيدا قول أمي نقلا عن حكم هذا الغائب التي تصر على تلقيبه ب ( أبي ) أن أناقة الرجل تكمن في حذاءه , وأنه لا شيء يفوق هذا الحذاء في أناقته ..**

**أحاول تمشيط شعري , أذكر أنني حاولت ذات مرة أن أمشطه بشكل مختلف , لكنه يعود إلى هذا الوضع , يفترق من الجنب , يبدو أنه يحب ذلك... فلمَ أخالفه !**

**ها أنا أسير في الشارع , متخذا الطرق الجانبية هروبا من قيظ الشمس , وحين أجُبر على السير في الشوارع المتسعة ألتزم الرصيف , أكره في طريقي إلى العمل شيئان , عبور الطريق , وركوب الأتوبيس , لكنني مجبر على ذلك .**

في الأتوبيس , أقف في زاوية بالقرب من المُحصل منكمشا ومتجنبا لمس أي شيء , في هذا المكان كل شيء متحفز للغضب , والجميع قد يتهمك بالتحرش , حتى الكرسي الفارغ...

لم أعتد طلب أي شيء من أي شخص , لذا أحمد الله حين يريد أحد النزول في المكان الذي سأنزل فيه , فيما عدا ذلك أنزل بناء على رغبة أحدهم , وارى حينها انه لا ضير من السير ..

لقد رزقت بعمل في مستشفى حكومي لكنه بعيد , حمدت الله كعادتي , ورأيت أنه لا يجوز أن أعترض على مسألة المكان هذه , أظل في الأتوبيس فترة طويلة , أكاد أُجزم أنه أطول خط سير ل أتوبيس , لكنني أهونه بسماع الراديو عبر سماعات الإذن , هذا الهاتف الذي لم أغيره منذ أن أهدتني إياه أمي , وكانت فرحة جدا بنجاحي ودخولي كلية الطب , هاتف قديم الطراز لكنه يتحمل , عن هذه الأشياء التي اخترعوها الآن ...

حدثت مشادة بين أحدهما والمُحصل , مما جعل هذا الرجل يستشهد بي ويستحلفني إذا كان هو المخطئ أم هذا الذي يقف أمامي , نظرت إلى كلاهما , عينا الكمساري تطلق شررا ووعيد , وعينا الرجل تنضح استجداء وصدق , لم أرد أن أخذ صف أحد , من أنا حتى أتسبب في إيذاء أحدهم وان كان من أجل الحق ..

في المستشفى ليس لي مكتب , يريحني أن أقول ذلك , فاعترافي ان لي مكتب , واحدهم يراه ملك له يدفعني إلى الغضب , وأنا لا أحب هذه الصفات ..

ادخل حجرة الأطباء لارتدي المعطف الخاص بي , القي التحية بابتسامة صادقة , يقابلونها بسخرية وأحيانا لم ينتبهوا لوجودي كأنني غير موجود , أتمسك بابتسامتي وسلامي الداخلي , ارتدي المعطف واخرج ...

أمر على المرضى , ربما هؤلاء الأشخاص الوحيدون , الذين يعيرونني الانتباه في هذا الوجود ..

أجلس في غرفة التمريض أصنع قهوتي واحتسيها وأنا أقرأ بعض التقارير , وجدت بها أخطاء كثيرة , ترددت ماذا افعل , هل أفضل الصمت كما فعلت في الأتوبيس ودائما , أم لا بد أن أخرج عن صمتي هذا , فهذه أرواح بشر , لا تحتمل الخطأ ..

ما أن حملت التقارير وخرجت من غرفة التمريض حتى وجدته أمامي , الطبيب الذي يشاركني في هذا القسم , والذي كتب هذه التقارير , عينه وقعت بل وتفحصت الأوراق , وأنا أحاول لملمة نفسي كي أواجهه , تنطلق الكلمات لكنها لا تصل إلى لساني , حتى وضعت التقارير نصب عينيه , ووضعت كل قوتي التي ادخرتها عمرا في عيناي , أمسك بها دون فهم لما يجري ..

**دخلت حجرة الأطباء وجلست على مكتبي المسلوب ربما لأول مرة , أخذت أكتب التقارير الصحيحة , ثم سلمتها لرئيس القسم ورحلت ..**

**شعرت بنشوة تعتريني جعلتني أرقص فرحا ..**

**فكرت أن من الآن سوف أفعل كل شيء يحمل ثمة تغيير , حتى عدت إلى البيت وجدتني أرتدي بيجاما أبي وأنام على صوت دقات ساعة أمي كما تعودت !**

# سأظل صديقته

**يدخل تباعًا إلى خشبة المسرح شاب وفتاة في أوائل عقدها الثاني ، الشاب يميل إلى السمرة متصل الحاجبين ، أطول من الفتاة بعض الشيء ، الفتاة بيضاء ، شعرها طويل ومجعد ، عيناها سوداوان غائرتان ، يرتدي كل منهما ملابس رياضية. تنظر الفتاة إلى المسرح الخالي.**

**.-هل تأخرنا أم أتينا مبكرًا؟**

**- (ينظر إلى ساعته).. على العكس في ميعادنا تمامًا.**

**-(تضحك وتنظر إليه).. لا يوجد شيء تام سوى في خيالك أنت.**

**-(يضحك ثم يجلس على الأرض).. لا يعجبك فيّ شيء!**

**-كما أنت أيضًا! (تجلس بقربه)**

**-ماذا سنفعل إذًا ؟ هل أُلغيت البروفة ولم يبلغونا ؟ أم أُلغي العرض بأكمله؟**

**-سننتظر ونرى.**

**-لا أستطيع الانتظار ، هيا ننفذ العرض ، بل نرتجل عرضًا خاصًا بنا.**

**-مجنونة أنتِ.**

**-أذكر أنك كنت تحب ذلك!**

**-هل سنبدأ مرة أخرى!**

**-لا. هيا اختر الدور الذي تريد أو أخلق دورك.**

**-لن أضاهيكِ في الخيال. اختاري أنتِ وأنا سأجاريكِ.**

**-إذًا سوف تقوم أنت بدور البطل وأنا سأقوم بدور حبيبتك.**

**-هل تذكرين حين كنا نلعب سويًا ونحن صغار ؟ دائمًا كنتِ تختارين لي دور الحبيب!**

**-وأذكر أيضًا أنك دائمًا ما كنت تفشل فيه.**

**-ورغم ذلك ما زلتِ تقترحينه!**

**-ما زلت على أمل.**

**-ماذا؟**

**(بعد صمت مشوب ببعض الحزن)... أن يتحسن أداؤك.**

**(يلمح المسجل فينظر إليها مبتسمًا) ترقصين؟**

**-هل في مسرحيتنا رقص؟**

**-تلك مسرحيتنا نحن. هيا.**

**يقترب من المسجل ويقوم بتشغيل موسيقى هادئة ، تبتسم هي حين تسمعها ، أتي إليها وراقصها .**

**-أتذكر حين رأيتك تراقص فتاة يوم عيد ميلادك؟**

**-بحركة واحدة منكِ رأيت الفتاة على الأرض ، وأنتِ بين ذراعي ، أخبرتها : عفوًا. صديقتي مجنونة!**

**يضحكان ويأخذان في الدوران حتى تنتهي الموسيقى ، يجلس وهي بقربه ، تميل برأسها على كتفه وتتحدث بلهجة حزينة.**

**-لماذا لم تحبني؟**

**-لا تجوز الأسئلة في الحب ، يحدث وكفى.**

**تنظر إليه عسى أن تجد في عينيه شيئًا آخر يريحها ، لكنها تجدهما باهتتين وحائرتين كما هما دومًا.**

**-كلماتك بلهاء ، مثل نظراتك تلك.**

**-لأنني عاشق ، لم يجد معشوقته بعد.**

**-تنتظر. بينما أتكئ على كتفك الآن!**

**-أنتِ صديقتي الوحيدة.**

**-مثلما أنت وجعي الوحيد!**

**يسمعان لغطًا يأتي من الخارج ، يليه دخول مجموعة من الشباب من الجنسين ، تقدمهم شاب يمسك أوراق في يديه ، ينظر إليهما.**

**-هناك من أتى مبكرًا. هيا سنبدأ في الحال.**

**وقف صديقها أمام فتاة جميلة ، ينظر إلى عينيها ليؤدي مشهدًا غراميًا ، لكنها رأت في عينيه غرامًا حقيقيًا . أوقف المخرج المشهد.**

**-لم يعجبني هذا الأداء. (هنا) أما زلتِ تريدين دور الحبيبة ؟ أعتقد أنكِ أحق به.**

**- سأظل في دور الصديقة... غير أنهما رائعان معًا.**

# هذا حكم القدر

أصابتني نوبة دوار من هذه التحقيقات التي لا تنتهي , أرى ذلك الكائن الذي يسألني بصوته الأجش , خنفساء تارة ويشبه الفأر المرتجف من طيف قط تارة أخرى .

يراني مذنبة واراه أحمق , بمَ تفيد التحقيقات و قد اقر بأنني مذنبة , لقد اعترفت بالأمر .. نعم , قتلتهم .

يزجون بي إلى السجن , بعدما أمروا بتحويلي في الصباح إلى مصحة نفسية للتأكد من قواي العقلية , وكأن شيئا في حياتنا لا يقودنا إلى الجنون !

في تلك الطرقة , احدهم البائس يتشبث بيدي جيدا , واهما بأن هذا يمنعني من الهروب , أخطو بتؤدة كمن تسير متبخترة في الشارع , تراقب المارة غير مكترثة ل شيء , اسمع ضجيجا خلف الباب الذي سوف يدفع بي بداخله , حتى تنتهي مهمته , يدفع بي ويغلق الباب من جديد .

ثرثرة تعم المكان , وماذا يجيد النساء غير ذلك , المكان ممتلئ عن آخره , يبدو أن ادم أوشى بنا جميعا , انتقاما من تلك التي أخرجته من الجنة .

تنفرج شفتاي عن بسمة مريرة , ريثما تشير لي إحداهن إلى مقعد فارغ في المنتصف بينها وبين أخرى , من هيئتهما بدا انه كان ضروريا أن أكون في المنتصف ..

ها وقد جلست بينهما , ارقب النسوة الغاضبة , والمنتشية . يبدو لم تنتبه أنها ما عادت في السرير , قد أتت بملاءته فقط !

بعضهن سعداء والبعض الآخر ناقم على سعادتهن تلك , هذا هو سر شقاءنا , أعيننا التي لا ترى سوى ما ليس لنا , حين نحقد أو نغار نصبح فوق صفيح ساخن , حتى يأخذك شعورك ذاك إلى نهاية لم تخطر ببالك ..

نظرات الغيرة التي تخترقني محاولة العبور إلى جسد الأخرى , يختزنها جسدي فتصيبني ب حمى الذكرى التي أوصلتني إلى هنا ..

لا يوجد شيئا أسوء من تسأل أحدهم كيف حالك , فيخبرك أن ( عادي ) هذا العادي يحمل الكثير الذي يجب الانتباه له , فأنا تلك الفتاة العادية التي لم تحظ بأي شيء استثنائي , منحتني أمي لأول من طرق الباب , اعتدت طيلة عمري أن أقول نعم وألا أطمع في شيء , هكذا أخبرتني أمي , لا تتوقعين من الدنيا غير السيئ , غير ذلك يكفيكِ أن تحيي يومك بشكل عادي !

على هامش الحياة أمُر بالأشياء وتمر بي , حتى أتت تلك التي نبهتني أنني لست كائنة بالحياة بل خارجها , في جحيم يدعي ( العادي )

**ننتهي من طعامنا فتجلس هي بجوار زوجها تحتضنها يداه دون خجل , يجلسا على (الكنبة ) يشاهدان التلفاز بينما اعد لهما ولي الشاي , اختلس النظر إليهما وأنا أناول أم زوجي كوب الشاي , بعدها أضع الصينية بجوارهما وأخذ الكوب الذي احتضنه بيدي الباردة المرتعشة كي التمس الدفء , وربما لشحذ حضن كالذي أراه ولم احصل عليه يوما ..**

**أشاهد التلفاز , لكن لم تدفعني الرغبة لمتابعة المسلسل رغم عشقي له , فأمامي الآن مسلسل أبطاله اشد رومانسية من هؤلاء الأتراك .**

**يتهامسان ويضحكان , تضحك هي بصوت عالي وتلمع عيناه لبهجتها , انظر إلى أم زوجي واندهش , لم لا يغضبها ذلك الأمر , أم إنها لا يغضبها غيري , أنا الذي لم افعل شيئا سوى الخنوع لإرادة الجميع !**

**في الليل وقد عزمت على أن تكون ليلة استثنائية , ارتديت قميصا احمر اللون يليق ببشرتي البيضاء , ثم وقفت أمام المرآة لأجد جوابا عن سؤالي , افرد شعري الممووج واضع حمرة الشفاه .**

**أجدني استحلت غجرية كما لقبوني رفيقاتي حين كنت صغيرة , اشغل الراديو واترك جسدي ينفض معاناته , يصرخ كما يريد كيلا ينفجر , حتى يرن جرس الباب بشكل مستفز , لأجدها أخت زوجي تريدني , البس الجلباب الواسع , واضع الحجاب سريعا واخرج خلفها .**

**أرى أم زوجي نائمة تتألم في السرير , وابنتها توبخني . على ماذا ؟ لا اعلم .**

**لكنها ظلت تبوح بالكثير حتى خرجت وأنا على صمتي الذي اعتاده الجميع , أعطيت (حماتي ) الدواء كي تستكين وتنام , أما أنا جلست بجوارها , أمسكت هاتفي واتصلت ب زوجي , هذا الذي أنساه في أحيان كثيرة , في كثير من الأوقات لم يكلف خاطره ويرد , كي يعرف ما بي , هل جاء بي لخدمة أمه فقط وقضاء ما يخصه !**

**يغالبني النوم حتى أصحو فزعة على صوت عالٍ , هكذا تصحو حماتي من النوم , أشيح بيدي , اتركها وادخل غرفتي , فهذا نصيبي هنا , غرفة في شقتها , وهذا بالطبع ليس ك حال الأخرى التي تتميز عني في كل شيء .**

**وضعت سماعات الهاتف في أذني وتركت جسدي يغرق في ثبات ينشلني مما أنا فيه , كان اليوم رأس السنة والجميع يستعد لاحتفال ما , وأنا ليس لدي أي شيء لأحتفل به أو لأجله , لكنني فكرت .... ( ما رأيكم أن احضر لكم بعض الحلوى) ..**

**قد تُخطط ل شيء ما حتى يبهرك القدر بأكثر مما تحلم , فقد آتى الجميع حتى أمي , أكلوا بنهم حد التخمة , ظللت أتظاهر بالأكل معهم والضحك من القلب , حتى بدت عليهم الأعراض .**

**يقال أن المرء يعتاد الشيء بالتدريج , أظن من قال هذا رجلا , وربما امرأة حصلت على ما يكفيها من الحياة , فتكرار السيئ معك وأنت تراقب غيرك ينعم بل يغرق في الجيد يقودك للجنون .**

**لكنهم لن يروا هذا مبررا للقتل ,هل غفر احدنا مقتل قابيل ل هابيل , لا أظن احدنا فكر ل مرة واحدة وقال قابيل محقا فهو بشر وبديهي أن يغار حين يحصل أخاه على نصيب اكبر من السعادة والرضا , هل تعاطفت ذات مرة مع الشيطان , على اعتبار ذنبه قائم على الغيرة !**

**انتهي من شرودي بضربة أوجهها لتلك المحجبة التي تجلس على يساري , لأخبرها بان لا تستكين للغيرة وتمني تبدل الحال .**

**إن أردتِ أن تكوني مثلها , فقط افعليها , فنارك لن تحرق غيرك .**

**ثم تركتهم وغرقت في ثبات عميق , يبدو أنني نسيت وتناولت قطعة من الحلوى دون أن ادري !**

# هناك... حيث البشر!

قارب في منتصف النهر , أتوسطه .. شاب عشريني ، تمر بين الحين والآخر بجواري قوارب أخرى ، أنسى كل شيء وأنا أتابع حركات تلك القوارب ، خاصةً تلك المزينة بالأضواء الملونة ، وهذا الصوت الذي يصدر منها ، بعض الأغنيات مع شباب راقص ، وكأنها جنة تسحرني ، انظر إلى السماء مبتسمًا فأجدها معتمة ، لقد أخذتني هذه البهجة من الصيد اليوم.

في صباح يوم آخر ، ملامحي تبدو أكثر جدية ، أريد أن افعل شيئًا جديدًا غير مراقبة القوارب ، رميت شباكي وظللت أرمقها ، أجدها امتلأت بالأسماك فأبتهج ثم أمتعض وأفرغها ثانيةً في البحر ، أبتهج أكثر حين أراها فرحة عند عودتها للمياه ، كمن يراقب سر الحياة والموت.

-هل أنت معتوه أم ماذا؟

جاءني الصوت من شاب يقف على حافة قارب مجاور لي.

-أراك تصطاد الأسماك ثم تطلقها. أي مجنون يفعل ذلك!

-أنا. ( هكذا أرد بهدوء , فينفعل ويردد )

-هذا ما كان ينقص البحر. مجانين. أكاد أجزم أن حتى المجنون لا يفعل ذلك!

يرمي شباكه ويرمقها هو الآخر لكن الأسماك لا تقربها ، تبدو الأسماك كلها وكأنها اتجهت إلى شباكي ، عرفت سر اللعبة ، هنا الأمان ، وهناك حيث إل لا عودة.

نظر الشاب إلي بامتعاض , ثم اخبرني .

-أعطني القارب أو الِشباك .

-لكَ البحر بأكمله.

-ومالي بالبحر وما أريده منه يذهب إليك.

-ربما لأنني لا أريده!

-لا تبدو كصياد. كلامك غريب ونظراتك تلمع كمن يرى الحياة لأول مرة!

-لا تفكر كثيرًا ، ترهقون أنفسكم بالتفكير ، حاول الصيد في مكان آخر ربما تجد بغيتك.

أوليه ظهري واذهب بعيدًا عنه ، نرى اثنان على متن قارب ، أحدهما يطعن الآخر في ظهره ، يمتقع وجهي واترك الشبكة بأسماكها تختفي داخل المياه ، بينما يلقي الآخر بنفسه في المياه محاولاً التقاطها ، تأتي سمكة قرش من خلفه تكاد تلتهمه لكن يدي تنقذه .

أصحبنا على متن قارب واحد , نشاهد سويًا الرجل الذي طعن صاحبه ، يقذفه فتختفي جثته في المياه ، ينظر حوله كمن لم يفعل شيئًا ، ثم يجدف بقاربه مبتعدًا , يستفيق الشاب ويندهش لرؤيتي فيحدثني .

-أردت سرقة أسماكك وتنقذني!

-كيف لكم أن تفعلوا هذا... (مشيرًا إلى القارب المبتعد)

-هذا طبيعي. سوف تعتاد الأمر.

-لا أريد اعتياد شيء ، لك القارب والأسماك ، على شرط ألا تقتل يومًا ، وإن اضطررت لذلك لا تجعله من الخلف ، يكفي أن تكون قاتلاً.

ينظر أمامه فيجدني اختفيت ، يرمي شباكه فتمتلئ بالأسماك.

في قاع البحر سمكة زرقاء اللون تجلس وحيدة , فتقترب منها أخرى.

-متى عدتِ؟

-أمس.

-استمتعتِ. أليس كذلك. هل رأيتِ الأضواء الملونة التي كنا نراها خلسةً حين نكون على السطح؟

-الأضواء مبهجة حين ننظر إليها في عالمنا. في العالم الآخر لا شيء مبهج.

-العالم الآخر!

-نعم كل منا عالم أخر. لكن ما اكتشفته أن أفضل ما حدث أننا خُلقنا في هذا العالم.

-لم يكن هذا رأيك من قبل!

-يبدو أننا لا بد أن ننتقل للناصية الأخرى حتى نتأكد أنها ليست جنة كما يُخيل لنا.

-هل تسابقينني.

-هيا. فالبحر لنا ( كنت أظن ذلك لكني تعجبت لها هذه المرة , لذا نظرت للأعلى وقلت ) ولهم أيضًا

# يوم على الرصيف

أربع أقدام تسير متجاورة اثنتان بشريتان والأخريان لحيوان. تسير الأقدام الأربع بخطى متقاربة ، يتقدم الحيوان فتظهر أقدامه الأربع ، بينما الأقدام البشرية ما زالت تخطو خطى روتينية وئيدة ، تتقدم أحيانًا وتدبر أخرى ، رأس الكلب يلامس الأرض حين يرى عظمة تآكل أغلبها لكنه لم يمانع أن يحصل على ما تبقى منها ، هذا ما يرضي الكلب على أية حال.

يسقط منديل على الرصيف ، الكلب تثقل خطوته حتى تخور قواه فيستلقي على الرصيف. وقفت قدما الرجل أمام موضع الكلب بضع ثوان ثم وكأنها انتبهت لشيء ما فأسرعت خطاها حتى اختفت.

رأس به بعض المشيب ، وجه مكفهر مبتل بالعرق يجعلك تفكر هل هذا اثر عرق أم اغتسال ؟! لهذا لا يكف عن استخدام المناديل الورقية ، عينان زائغتان خلف النظارة الطبية ، ذقن نبت فيها أيضًا بعض الشعيرات البيضاء .

اعتاد رأسه التجول بين البنايات ، حين يلتفت إلى اليمين سوف يجد تلك العمارة التي يمتلئ فناؤها بالسيارات ، فيتعجب كيف لمكان واحد أن يمتلك كل هذا وهو قد تجاوز الخمسين ولم يستطع الحصول على السيارة التي حلم بها .

رأسه يعانده فقد انتهى دور هذا ، أتى دور السيدة الجميلة التي ينتشي لعطرها كل يوم ، لم يفكر يومًا أن ينظر إلى وجهها فقط اعتاد رائحتها.

يسمع رنين هاتف فيتحسس جيوبه حتى يخرجه ، ينظر إلى شاشته ليجد اسمًا لشخص ما ، تمتعض ملامحه ثم يغلق الهاتف دون رد ويعيده إلى جيبه مرة أخرى.

ماذا سيحدث إن لم أذهب إلى العمل اليوم ، أن أختار يومًا في تلك الحياة كما أريد؟

لأول مرة يخالف جسده الخطوات التي اعتدها ، عاد إلى الرصيف بجوار الكلب المستلقي ، جلس بجانبه , ثم تحدث إليه كصديق !

-هل خالفت روتينك يومًا ؟ (يضحك ساخرًا) هل لديكم روتين أيضًا ؟ أظن ذلك. الروتين ناموس الكون.

-خمسة أعوام وأنا أشاركك السير على هذا الرصيف ، لم تتغير عاداتنا ، ألم ترغب يومًا في التغيير؟

أن تكون بشريًا يائسًا لا يجد من يحادثه فيلجأ إلى كلب!

**-كيف تنام كذلك على قارعة الطريق دون خوف ، دون استياء من ذلك الضجيج ، وأنا أنام وسط سكون تام ، ويزعجني دائمًا ضجيج روحي. لمَ لا يوجد كاتم صوت لضجيج الروح؟**

**يغفو للحظات بجوار الكلب ثم يستيقظ ليجد الكلب متبولاً بجواره ، لكن ما هون الأمر أنه لمح بضعة نقود معدنية وورقة منتفخة ومطوية لا بد وأنها تحوي شيئًا ما ، أمسك بتلك الورقة وأخذ النقود المعدنية وهو ينظر حوله مبتسمًا ثم يشمئز حين يلحظ بول الكلب من جديد ، فيبتعد عنه بقليل ثم يخرج منديله ليمسح يده ووجهه ، وبعدها فتح الورقة ليجد رغيف عيش ممتلئًا بالأرز واللحم ، نظر إلى السماء باسمًا ، ثم قضم أول قضمة من الرغيف ، وبعد أن وصل إلى منتصفه أعاده إلى الورقة ثم طواها ووضعها إلى جواره ، نهض وأخذ ينفض التراب عن ملابسه ثم نظر إلى قدمه العارية ، التفت حوله فلم يجد الحذاء.**

**-هذا هو الأمر إذًا لقمة عيش مقابل حذاء... لا شيء مجاني على هذه الأرض!**

**تسكع حافي القدمين لتصبح حريته واقعًا ملموسًا ولو بأقدامه! لمح صديقه الكلب من بعيد يسير بجوار كلب آخر ، لا. إنه ينظر إليه بطريقة مختلفة ، يبدو أنها أنثى ، اقترب حتى لامسها تتمنع وتبتعد لكنها تستسلم في النهاية... فيردد ساخرا .**

**-كلهن سواء يا صديقي.**

**يضحك ويسير بلا هدف. قد يكون هدفه هو أن يفعل ما لم يفعله يومًا ، ظل يفكر فيما رآه من الكلب وزوجته ، لا يعلم إذا ما كانت زوجته أم زوجة آخر وتحبه هو ، أم أنها ليست ملكًا لأحد. هل يفكرون مثلنا ؟ أيشعرون بتلك الأشياء التي تنغص علينا حياتنا!**

**ظل شاردًا مع أفكاره حتى رأى شابان يعترضان طريق فتاة ، لم تسعفه قدماه لإنقاذها بل فعل ذلك نباح صديقه الكلب ، أخاف الشابين حتى وليا فرارًا ، الفتاة تهرول بعيدًا ، لا يعلم هل انتهت قصتها أم سيأتيها ما هو أسوأ.**

**جلسا على رصيف آخر ، أعطى اللفافة للكلب وظل يرمق المارة ، يتخيلهم آليين خالين من الحياة ، ثم يلتفت للكلب من جديد.**

**-ألم تغير رأيك بعد. لا تريد أن تصبح بشريًا ؟ تأتي للدنيا غير راغب وترحل عنها كذلك ، تسير بك الأيام ولا تسير لك قط, تحلم بحب فتاة ، ثم تفكر كيف تتخلص من حبها ذاك ، تتمنى إنجاب أطفال ، حتى يأتوا فتقول لنفسك هل الأمر كان يستحق أن تتمناه بالفعل ؟ حتى تدور بك الأيام ، ويصبح حلمك فقط مرور اليوم ونهاية لائقة.**

**ينظر إلى جواره فيجد صديقه الكلب قد غط في النوم ، وجهه راضٍ ، ظنه مبتسمًا ، وربما يكون بائسًا مثله لكنه لا يستطيع البوح.**

**-أتعلم يا صديقي أن الموت هو نهاية كل ذلك ، لا بد أن ننهي هذا السخف المسمى بالحياة ، أنت لست سعيدًا بحياتك مثلي أعلم ذلك ، أنت فقط تخشى الوحدة هناك ، لكني سأكون بصحبتك ، لا أعلم إن كنا سنتحدث هكذا هناك ، لكن حتمًا ليست هناك وحدة وعذابًا أكثر مما شاهدناه .**

**ينظر إلى الكلب النائم والشارع الفارغ والسماء المظلمة ، يشعر بأن كل شيء مل أفكاره وكلماته ، جميع كلماته ترد إليه دون إجابة!**

**- أعلم أنني أثرثر كثيرًا. زوجتي أخبرتني بذلك ، حتى إنني أراه في ملامح أولادي حين أقترب منهم. أسمعهم دون أن ينطقوا.**

**-ها هو الثرثار قد أتى. لكنني لست كذلك ، أنا فقط أفكر كثيرًا ، أمتلئ بالضجيج فأريد أن أقضي عليه بالثرثرة ، لا يسعني سوى ذلك والانتظار القميء للحظة النهاية ، رغم أن كل شيء فيّ قد انتهى ، لكن لا بد أن أنتظر!**

**ينظر إليه فيجده ما زال نائمًا.**

**- نعم لن نستطيع سوى الانتظار فتلك الكلمة الأخرى التي تملك نفس الوزن ليست من حقنا. حتى الحديث عنها. (يتلفت حوله)**

**- حتى الحديث عنها أظن أنه أمر ليس صائبًا ، ينظر إلى السماء وقد استلقى بجوار الكلب ، لقد شارفت الشمس على الظهور ، يومي قد انتهى هل نتحرر أم سنعود كما كنا يا رفيق ؟!**

# كم يشبه أحدنا الآخر

يخرج كل يوم , لا يأبه لأحد , يسير في طريقه شاردا وغاضبا , جيدا أن تراقبه من بعيد مثلي , فهو مثل أغلب الأشياء في عالمنا , كلما ابتعدت , كلما ظهر جمالها ورغبتنا بها , لكن ما أن يضعك القدر في طريقه وهذا لحظك العسر , سوف تكون نهايتك , لم يفعل لك شيئا , فقط سوف ينظر لك , ثم تتبدل حياتك بعدها , تصبح كمن أصابه مس , وربما مسحة كبيرة من ألمه الذي ينضح منه ...

لا نعلم هل خلق هكذا , أم هناك شيئا ألمه إلى هذا الحد , شيئا ألقى بروحه بعيدا وتركه هكذا بيننا ... وحشا .

أود أن اعرف سره , لكنني اكتفي بمشاهدته أول الصباح , قد أصبح وقع أقدامه منبهي الخاص لدقات الساعة السابعة , و أصوات قاطني الحارة وهم يتهامسون كي يعم الصمت استقبالا له في وقت الظهيرة .

لا نعرف أين يذهب ولا من أين يأتي , ما بين رواحه وغدوه يتبدل حاله , تصبح هيئته الخارجية أفضل حالا , لكن نظرته تخبرنا بالعكس ..

من هؤلاء الذين يهتمون لهيئته أكثر من روحه وآلامه , وان كانوا يهتمون لأمره بالفعل , لمَ تركوه هكذا ..

يفضل كلانا هذا المكان الذي جمعنا سويا فقط بالنظرات لأول مرة منذ سنوات لست اذكرها , ليست لكثرتها , لكنني أفضل الأمر هكذا , لا أعلم ما المميز في أننا نعد السنون , وما نحصله فيها لا يتجاوز الأيام .

فليكن الأمر هكذا لحظات نذكرها وتظل فقط هي ما حييناه , كتلك اللحظة رغم ألمها , لكن من قال أن لحظات الألم ليس بها مسحة من السعادة , كمثل لحظة الفرح الذي ينغصها شيئا ما ..

كنت أسير مع صديقاتي , أحاول أن أبدو طبيعية مثلهم , كدت انزلق بسبب ساقي المتعب الذي أبى أن يكون ثابتا ومستقيما مثلهم , ساندتني يداه , حجبت دموعي رؤيته , لمسته أوقفت نحيبي وأزالت غصتي , انفضوا من حولي وبقي هو مستحلفا بلهجته المتعثرة أن يرافقني إلى البيت ..

منذ ذلك اليوم لم يجمعنا حديث , فقط نظرات نتبادلها على استحياء , أفكر أن أحادثه لكنني دائما أتراجع , أن كان يريد أن يتحدث لفعلها , فهو من يقرر كل شيء , لذا اكتفي بما لا أمل منه طيلة هذه السنوات .. وقوفي هكذا أراه وهو يغفو , في العراء يفصله عني بضعة أمتار

وأنا أقف عاجزة خلف النافذة , هل من حقي أن أساعده , أن ينام هنا يتدثر بغطاء حقيقي يقيه البرد أفضل من الجاكت الزيتي الذي اقترب لونه من الأسود بفعل الزمن , الجاكت الذي بالكاد يصل لمنتصف ذراعه , هذا الذي كان جديدا وجميلا حين تقابلنا لأول مرة ..

أخذني الشرود , جعلني أراه بجواري خلف النافذة نطل على عراء آخر , عراء مبهج كما روحي الآن , يسير أمامي ويشير إلى كي اتبعه , فأجدني اتبعه سالمة دونما عيب , نظرته تملأني بهجة فلا تسألني كيف كانت ابتسامته .

أيقظتني وقع أقدامه كما اعتدت لأجد نفسي متكئة على قضبان النافذة الحديدية , نعم كان حلما , وكيف للأشياء السعيدة أن تكون سوى حلما ..

أجده يكاد يفارق الشارع ذاهبا إلى هذا المكان الذي يبدل حاله في كل مره , هل اتبعه لأكشف هذا السر , لأعيد له روحه الذي سلبوه إياها ..

أضع الحجاب فوق رأسي , وأقاوم ترددي سريعا في الإمساك بالعكاز الذي أتمرد عليه دائما كي أبدو طبيعية , انهي ترددي سريعا وأتكئ عليه كي الحق به ..

اجعل قبلتي طيفه الذي يقترب ويبتعد , فيحثني على الإقدام تارة , والتبختر الذي أحبه تارة لأنه يجعلني اشرد في تفاصيله أكثر , أول مرة لا اهتم لنظرات من حولي وتعليقاتهم ..

جل ما يهم هو وبغيته وتاريخه الذي سلب روحه , يتهادى في مشيته ويكاد يجر ساقيه , إن كان كارها لقاءهم إلى هذا الحد , ما يجبره على المجيء , انعطف يسارا , ارتديت نظارتي الشمسية وحاولت الوقوف على مسافة , يقف أمام منزل قديم يتأمله في حزن , يراقب فتاة صغيرة تلعب في الفناء الضيق , بالكاد أراها والفضل يعود لضوء الشمس , تزداد بسمته كلما تعمق في النظر إليها , لا يتركه القدر يهنأ بابتسامته كثيرا , خرجت امرأة ما اضطربت ملامحه حين رآها وابتعد ..

ذهب باكيا وبائسا كما هو دوما ، كدت أقترب منه لأهون عليه ونبتعد عن هذا المكان , لكنني لمحت رجلا قادم نحوه , يشبهه في الشكل إلى حد كبير , هيئته مرتبة بشكل مبالغ فيه , يربت على كتفه , لم اترك نفسي لحيرتي كثيرا , اقتربت وأمسكت بذراعه , ذلك الجاني الذي ينضح كل شيء فيه بأنه هو ..

وتلك الناظرة خلسة من خلف النافذة , أبعدت يده التي جعلت كل ما بجسد ( طاهر ) يرتعد , ثم وليناه ظهرنا .

نظر لي لأول مرة بعين باكية , , يا الله كم بدا جميلا وبريئا وكأن روحه تغتسل , ربما تقرر العودة من جديد ..

**سرنا سويا يستند كل منا على الآخر , لم أسأله عن شيء فهيئة هؤلاء تخبر بالكثير , اشعر أن روحهم ترتعد لرؤيته , لذا يتخلصون منه سريعا ..**

**دخلت حارتنا وأنا أتأبط ذراعه لا أخشى أحدا , لقد وجدت عكازي الذي لن يخذلني آبدا , وأظنه أيضا وجد روحه التائهة . فقد كان مبتسما وهذا ليس بالقليل .**

# لذة الحكايات

كان أول يوم لي في العمل , وكما يقولون ( الغربال الجديد له شده ) لذا كنت أنا ذاك الغربال الجديد , أتحمس لكل شيء , أفعله بحب مبالغ فيه لكنه حب من طرف واحد , لم يحبني شخص وربما شيء في هذا المكان , أخذت أنظر إلى تلك المهام التي توكل إلي , حتى انتهي منها فيهرولون لأخذها حتى تُنسب لهم !

حتى صباح يوم قررت أن انتقل إلى باب الشكاوى , همه ثقيل كما يقول الجميع , لكنني وحدي فيه , ما المتعب في قراءة مشاكل الآخرين والسعي في حلها .

أخذت أقرا الرسائل , نحن نعلم قبل أن نستمع لأي مشكلة أو نقرأها , أن مرجعها هو الحب , فهذه الكلمة التي تبدو بسيطة وهامشيه لدى البعض , عندما تنضب في حياتنا , يصبح الكون لا يحتمل , ونحن مجرد حيوانات برية , تأكل وتتكاثر فقط !

وأنا غارقا في قراءة القصص دخل علي عجوز يستند على عكاز خشبي , يكاد أن يقع فأنهض سريعا كي أسانده وأجلسه على المقعد المقابل لي , يده مغضنة و بها وشم تاهت ملامحه , عيناه اللتان كستهما طبقة الجلد المغضن وتكاد تخفيهما , ينظر لي مستجديا ..

لم نجد سوى الصمت , وتبادل نظرات مختلفة , أنا أفكر هل يكون سبب مشكلة هذا هي الحب أيضا , وهو يفكر ما إذا كنت سأنصفه , أم سأكون مثل البقية ..

بيده أوراق يحكم قبضته عليها , وكأنه يخشى ضياعها , يدقق النظر ويقرب ورقة باليه من عينيه , ثم يعطيني إياها , ما أن وقعت عيناي على أول سطر , قلت ليتها تتعلق بالحب ..

يريد هذا الرجل أن يضيعني بلا شك , فأنا دائما أسير بجوار الحائط بل بداخله , حتى لا تطالني يد هؤلاء , أتوقعني أنت بها أيها العجوز , تسلمني لهم هكذا !

مددت يدي كي اخذ منه باقي الأوراق , لكنه يعبس وينظر لي متحديا , كمن يكشر عن أنيابه دفاعا عن نفسه ..

أعطاها لي وهو ما زال مرتابا في أمري , ظل يرمقني وأنا أقرأ وكأنني سأفر ومعي الأوراق , حاولت أن أقدم يد المساعدة , لكن يبدو أن أصحاب الجريدة لا يهتمون لأمر شكواه هذه , يرونها مدخل لخلاف سوف يوقعهم في مشاكل ليسوا كفؤا لها ..

لم أجد ما افعله لهذا الرجل سوى احتضانه , ووعد مني بأنني سأهتم لأمره , أخذ أوراقه واحكم قبضته عليها مرة أخرى , فهو يعلم أن لا أحد سيهتم لأمره سواه , لذا يتنقل بين الأماكن ويبث شكواه في صدور الجميع , ربما يلين أحدهم ويساعده !

يذهب الرجل وتبقى غصته في صدري , حتى أجلس على الكرسي , ناظرا إلى الأعلى مفكرا في جملتنا الشهيرة ( الشكوى لغير الله مذلة ) إذا ماذا نفعل ؟!

انظر في الهاتف المحمول لأجد أن موعد انصرافي قد حان , انهض متكاسلا فلا شيء يثقل الجسد سوى الهموم ..

أجد رجل ذا هيئة مرتبة جالسا ولا أحد يهتم لأمره , فأسأله عما يريد , يخبرني أنه يريد العمل وأنهم يأتون به كل مرة دون أن يصل ل شيء , نظرت إليهم وهم جالسون لا يملون النكات السخيفة والقهقهة المبالغ فيها , متناسيين أمر هذا الرجل , فأخبره انه لا يوجد من يساعد أحد هنا , اذهب حتى تجد ما تريد في مكان آخر ..

يوم ثقيل أراه أطياف وأنا هنا على سريري , لذا قررت مغادرة هذا المكان ,الذي يشع بكل ما هو بشع وسلبي .

الاتجار بأحلام البشر ورغبتهم في العمل , وان نعاملهم أنهم أدوات لكسب العيش لا أكثر , يجعل منا نوع أدنى من أن يكون حيوانا !

تأتيني هنا وصلات شكاوى من نوع آخر , يبدو أنني مدمن لهذا النوع من العذاب , هذه السماعة التي وضعتها في (المنور) تأتيني بكل ما يدور في هذا البيت ...

اضحك حين اسمع هذا وهو يتشاجر مع زوجته ..

_ يا بنت الناس , أنا لا أريد أن أوبخك !

يقول هكذا وكل يوم ينهي وصلتهما بكل ما يعرف من أقبح الشتائم , ثم يغلبهما النوم حتى الليل التالي ..

وابتسم ساخرا حين اسمع مكالمة تلك مع صديقتها ..

_ لماذا تبكي يا خائبة الرجاء ؟!

ومقام النبي أنتِ في نعمة , ماذا أخذنا من الرجال يا أختي غير حرقة الدم ,( ثم تعقبها بضحكة خليعة ) تصدقي انك قليلة الأدب .

ثم تنهي اليوم الكئيب همهمة تلك الساحرة , التي ينتشي لها الرجال دون الاقتراب منها , فما بالك بذلك الذي يضمها بين ذراعيه , يقال أنها كانت سيئة السمعة , ولنفرض ذلك , أليس الله بغافر الذنوب , ثم أن هذه يُغفر لها أي شيء ..

اترك العنان لخيالي وصوتها حتى أكاد أن أقع ف الفخ , فيذكرني ضميري بذلك الرجل الذي أُخذ منه مصدر عيشه بالقوة , فأعزم النية أن أحدث أستاذ ( محسن ) المحامي الساكن في

**الدور الرابع , فهذا يعني مصالح مشتركة أساعد الرجل , وأنال نظرة وربما أكثر من صاحبة الصوت العذب .**

# الحب ينبت الورود. أحيانًا

تجلس على حافة السرير تنظر عبر الشرفة إلى شعاع النور الذي يداعب ملامحها المبتسمة ، فتاة في منتصف العشرينيات وجهها يعطي انطباعًا بأنها تجاوزت الأربعين ، وجهها بريء لكنه شاحب ، تغطي رأسها بوشاح أسود ، ترتدي جلبابًا أسود به بعض الكرات البيضاء المتناثرة ، تدخل عليها الحجرة امرأة أربعينية ، الابتسامة تنير وجهها وهي تسرع تجاهها.

-لقد أتى يا ورد. حُلم حياتكِ أتى.

-حلم حياتي. وهل يجوز لي تحقيقه الآن يا نرجس ؟!

-انسي ما مضى. لديكِ فرصة للحياة لا تضيعيها.

-سأحاول يا نرجس... أتمنى أن أجدها.

-هيا لتريه ويراكِ. ابتهجي من أجل تلك اللحظات التي انتظرتِه فيها.

-منذ الطفولة.

تنظر عبر الشرفة لتتذكر ما تم قبل تلك اللحظة بعامين ، تسير ويدها تحتضن يده،عيناهما تشعان سعادةً وأملاً ، حتى جاءت له فرصة السفر ، أخبرها : عامان على الأكثر سيكون معها ولها ، هل كانت تعلم أن في عامين سوف يحدث كل ذلك ؟ ربما هذان العامان كانا أكثر أيام عمرها حاجةً إليه ، فتاة جميلة ذات شعر بني طويل ، جسد نضر ، تذكر كيف كانت حين ترتدي ذلك الفستان الأسود القصير الذي يحبه. لكن الآن لم يعد كل هذا موجودًا ، فهي حطام امرأة ، لا يستحق هذا ، لذا تحدث نفسها ..

_نعم سوف أخبره بالحقيقة ، أخبره أن ما مر قد مر ، وهو آخر ما نملكه.

مرة أخرى على حافة السرير تداعب الضوء بيدها وهو يجلس إلى جوارها.

-أما زلت مُصرًا على أن نعقد قراننا اليوم؟

-هل غيرتِ رأيكِ يا ورد ، هل نسيتِ تلك الشرفة؟

-لم أنسَ شيئًا. على العكس لم أذكر غير ما كان بيننا. نظراتك،تلك الرسائل.

تشير إلى الكثير من الأوراق التي تغطي السرير.

-لقد كنا كلاسيكيين جدًا. لقد سخر الجميع منا. ونحن نقول : مَن أخبركم أننا وقصة حبنا من عصركم هذا.

-إذًا لمَ هذا السؤال يا ورد؟

-أخشى أن أفقد حبك ، أو يتحول إلى شيء آخر.

**-أقسم لكي بورد. لن يحدث ذلك.**

**-لذا يجب أن تعرف أمرًا ما ، بعدها لك الحق في قرارك. لن ألومك.**

**ينحسر الوشاح عن رأسها فتبدو شبه صلعاء ، ثم تنزع الملابس عن صدرها وهي مغمضة العين ، فتبدو على وجهه ابتسامة ، يقترب ويلفها بالوشاح ، يقبل رأسها ثم تهبط شفاهه إلى ألمها ليمنحه بعضًا من الحب والأمل في هيئة قبلة.**

**-هل هذا أمر هام يمنع عقد قران اثنين تحابا عمرهما كله ؟ هيا استعدي يا ورد.**

**يتركها وتجلس هي من جديد يختلج في صدرها مزيج من البهجة والخوف.**

**لم تفكر يومًا بأنها سوف تحييا أيامًا سعيدة كتلك الأيام ، صحتها أيضًا تحسنت ، يبدو أن الحب علاج لم يكتشفه الأطباء ، شعرها أصبح له وجود من جديد ، لم تخجل من جسدها ، فهي بين ذراع حبيبها كاملة الأنوثة لا ينقصها شيء.**

**في صباح يوم خرجت من الحمام ترتدي "بُرنس" ، وقفت أمام المرآة تصفف شعرها فرحة به كمن تختبر إحساس الأنوثة لأول مرة ، تخلت عن ردائها وظلت تنظر إلى جسدها عاريًا ، وجدت في المرآة مكان نهديها وردتين حمراوين ، لم تصدق ما رأت ، أخذت تتحسسهما في سعادة ، ثم فتحت النافذة ليداعب ضوء الشمس ضيفًا جديدًا استقبله جسد صديقته ، لتعلم الشمس أن الحب ينبت الورود أحيانًا!**

# حديث الصمت

**بينما كنت أقف منتظرة شعرت ببعض الألم ، بدأ توازني يختل فأجلستني إحداهن حتى يحين دوري. نظرت إلى ذلك الطابور الطويل الذي كنت أقف فيه ، يكاد يكون نسائيًا لولا قلة من الرجال تقف بجانبهن فيما يسمى بطابور آخر.**

**وقفة النساء كانت عنصر جذب لي. منهن من تحمل طفلاً لا يكف عن البكاء ، مما يجعل من تقف أمامها تنظر إليه والى والدته بتأفف ، وأخرى تهتم بمظهرها رغم مرضها. من جمالها وطلتها تكاد تشك أنها ليست مريضة! ومن يعلو صوتها على امرأة تجاوزت دورها ، وتلك التي تتحدث عن كافة تفاصيل حياتها لامرأة تراها لأول مرة. أشعر بأنهن ينتظرن تلك اللحظات لكي يخرجن ما يشعرن به من غضب أو سعادة أو حديث يردن البوح به لغريب!**

**بدأت أشعر بالدوار. أنظر أمامي لا أرى سوى صورة مشوشة ، أغلق عيني وأفتحها فتزداد الضبابية. حتى تلاشت الصورة من أمامي وجدت المكان خاليًا تمامًا ، المكان نفسه تبدل ، أصبح أكثر قدمًا وكأنني في عصر آخر!**

**هذا الرواق الكبير. والكثير من الحجرات التي كانت من قبل حجرات كشف مليئة بالبشر تسمع من خلالها جميع الأصوات ، الآن لا أسمع سوى السكون. هل غفوت وغادر الموجودون وتركوني وحدي في هذا المكان المخيف؟**

**رأيت طيف امرأة ترتدي ملابس غريبة ، ملابس تشبه الأميرات ، والمكان تحول إلى ما يشبه (القصر).. هل هو بالفعل كان (قصرًا)؟!**

**حاولت أن أكتشف هذا المكان. رأيت حجرة بها طاولة كبيرة تصطف من حولها كراسٍ تتسع لعائلات بذويها ، بجوارها حجرة أخرى بها عدة أسرة ، لم أرَ للحجرة حوائط من الستائر الفاخرة التي تغطي كل شبر فيها.**

**عادت من جديد. من هي تلك المرأة ، وما حكايتها , وما الذي أتى بها هنا , وربما ما أتى بي أنا هنا ؟!**

**اقتربت منها ، وراقبت نظراتها ، ودموعها ، امرأة بيضاء ذات جسد ممشوق ، عيناها العسليتان يكسبهما البكاء لمعة آسره ، وأنفها الطويل به بعض الحمرة. في كبرياء أخذت منديلاً من حقيبتها ومسحت دموعها. كنت أريد أن أقترب منها أربت على كتفها. أن أفعل لها أي شيء ، ولكنني جبنت.**

**التفتت ناحية الباب لكي ترحل ، ولكنها نظرت مرة أخرى إلى الحجرة التي خرجت منها وهي تنتحب ثم خرجت...**

**أخذني الفضول إلى تلك الحجرة التي كانت تنظر إليها. وجدت رجلاً طويلاً وسمينًا. يشعرك بالرهبة خاصةً ما إذا كنت وحيدًا في هذا المكان ، كان ينظر من النافذة ، لا بد أنه ينظر إليها.**

**حجرة نوم كبيرة جدًا ، بها سرير كبير فوقه تلك (الناموسية). أغطية من الحرير ، يوجد بعض الكراسي من الطراز القديم المطعمة بالذهب ، والبساط الفاخر ، وبعض الصور ، ولكن وسط كل هذا الثراء بدا الفقر في دموع المرأة التي رحلت ، وفي وحدة ذلك الرجل الذي ترك النافذة في يأس وجلس على كرسيه الفاخر. رغم غلظته كانت ملامحه حالمة في تلك اللحظة ، حتى إنني لمحت دمعة مكابرة تأبى النزول.**

**شعرت باحتباس أنفاسي ، انصرفت وأنا لا أعلم كيف أتخلص من هذا كله ، وفي خارج القصر وسط المروج الخضراء ، لا يفصل بينه وبين هذا المشهد الحزين سوى بضعة أمتار ، شاب أسمر طويل ونحيل لا تعرف ماهية عينيه , تارة تتسع وهو ينظر إلى حبيبته ، وتارة تضيق وكأنه يحتضنها بها ، أما هي فتاة لا تتجاوز الثمانية عشرة ، خمرية اللون عيناها بنيتان مسحوبتان ، شفاهها وردية اللون مكتنزة ، وجهها مستدير ، اقترب الشاب متلفتًا ثم همَّ بتقبيلها ، أشاهدهما و أصبحت أتلفت مثلهما ، أريد أن أقلق بدلاً عنهما ، أردت أن أغلق عيني على هذه السعادة ، لا شيء يفسدها علي ، وجدتني أقول لا أريد أن أفسد هذه أل. صحوت على صوت من حولي وهم ينظرون إلي. نظرات قلق وريبة ،سمعت صوت إحداهن تقول...**

-إيه يا حبيبتي أفزعتِنا ,تحدثين نفسك كالمجانين ..

**ابتسمت وأنا أرى المكان من جديد ، نفس الطابور،كأنه لم يتحرك،نفس الأشخاص بذات التصرفات. ماذا حدث ؟ هل فقدت وعيي ؟ لا أعلم.**

**ولكن. ما الذي أراد هذا المكان أن يخبرني به ؟ ما الذي تحمله هذه الجدران،من حزن وشقاء ، وتريد أن تشاركه مع أحدهم؟**

**قررت الانصراف ، أشعر أنني شفيت،وربما حان دوري في طابور آخر غير هذا الطابور الساكن!**

**انصرفت وأنا أنظر إلى الحجرات ، و أشاهد كل حجرة وأرى من بداخلها. أبتسم وأفكر. تُرى من سكن هذه الحجرة من قبل ، وما هي قصته ؟!**

**هل يحوي هذا المكان مزيدًا من الحزن والشقاء ؟ أم ربما شهد لحظات سعادة وإن كانت قليلة! وأثناء مروري ومراقبة الحجرات. اكتشفت أن كل حجرة لها طبيعة خاصة أبت أن تغيرها ، ولكن تغيرت أشياء لا بد أن تتغير مع الزمن ، لبت للمكان احتياجات وأخذت منه أخرى. شعرت كأنني كبرت أعوامًا.**

**في الخارج كانت هناك قصة أخرى ؛ فقد تحولت المروج الخضراء إلى منازل كثيرة مختلفة متلاصقة ، لا تفصلها سوى الحارات والأزقة ، منازل متنوعة بتنوع شكلها وماهية قاطنيها. حاولت أن أستمع إلى قصصهم ولكنني فشلت. أصبح المكان مخنوقًا لا يستطيع أن يحكي. هل أصبح المكان أبكم. أم نحن من أصبنا بالصمم؟**

# مر الأمر بسلام

وقفت مثله ارقب السيارات المارة ،هو يترقب فرصة للمرور ،وأنا أتحين فرصة للخلاص ،ينظر لي بعد أن طالت وقفتي ،يرمقني بسخرية كمن عرف سري ،يقترب بموائه الذي يخيفني لأول مرة ،يشير إلى كلما مرت سيارة .

كيف ل هر مثله أن يسخر من لحظة كهذه ،هل لأنه يعلم .. لديه حيوات سبع كما يقولون ،فدائما لديه فرصة في حياة أخرى ،لكننا نمتلك فقط حياة واحدة ،ليس هناك فرص أخرى ،فقط تلك التي توهب لك مرة واحدة بكل ما تحمل ،وهذا يعود لحظك .

وإذا مللت فليس أمامك غير هذا الذي يقبع على الناصية الأخرى ،الذي يسن أسنانه وينتظرني ،هذا إل لاشيء المخيف ،ربما لا يراه الهر لذا لا يفزعه شيئا ،يظل يركض أمام السيارات وهو يفتر عن أنيابه بابتسامة تخيف من هو بائس مثلي .

رأيت أنه ليس ضروريا أن تنتهي حياتي اليوم ،ربما يوما آخر أكون أكثر جدية ,أكثر كآبة أيضا ,وتكون الشمس في وقت الغروب كي أشعر أن هناك شيئا يأسف لرحيلي ,يودعني وربما كأنه يذهب معي ,مخيف هذا المكان لمن يذهب إليه بمفرده.

في طريقي للعودة اشعر بشيء ما تغير بداخلي ,أرى الكون أصبح أكثر بهجة ,والبشر لطيفين للغاية ,فهذا الذي لم يكن ليروي الشارع دوني ,فهو يراني جزءا منه وبحاجة إلى إطفاء الحرارة بداخلي لا مفر .

لم يفعل ذلك اليوم ,وجدت الشارع مرويا قبل مجيئي ,ارى الهر يتبعني ويبتسم ساخرا كلما وجدني مبتسما ,ما يضيره في سعادتي!

أصل إلى البيت لأجده مضاء وأمامه مقاعد متراصة فارغة , هل زفاف أحد اليوم ,لكنه يشبه صوان العزاء . استعيذ ثم أدلف إلى البيت سريعا فأنا دائما ما ارتجف لأجل الموت.

كان يوما مرهقا لا بد من أنني سوف أنام نوما هنيئا , ما أن أفرد قامتي حتى أجد الهر أمامي ينظر لي متحديا.

ما أتى به إلى هنا , كان لابد أن ينتهي دوره هناك , ماذا يريد أن يرى ؟

أحاول النوم بلا جدوى , نظراته تصيبني بالرعب , اجلس وأضع يدي على وجنتي وانظر له , فيبتسم ساخرا ثم يقترب من الباب وكأنه سمع طرقا ما , لأجد شبحا يشبهني قادما إلى عبر الباب , هكذا كما الأشباح دونما تحريف , اخترق الباب المغلق متجها نحوي , حينها شعرت أن قلبي تجمد كما نظرتي , لا أعلم أن كان هذا حلما !

لكنه كان هو. واقعي لدرجة تخيفني , يجلس بجواري يبتسم كما القط , هل يريدون سلب عقلي ؟ أن كان الأمر هكذا أفضل الموت .

يتحسس وجهي كي أطمئن , أرادني أن أتبعه , من منا الأصل ومن الصورة , بالطبع هو الصورة , دائما ما كنت أنا الأصل , يتبعني هو كيفما أشاء , ما الذي دعاه على التمرد اليوم , أخطو تجاهه أشعر بأن شيئا ما يأخذ قلبي حينما أفعل ذلك , لذا أبقى على مسافة , يجاورني القط في خطواتي , حين أبطأ أو أسرع , يغيظني هذا الشيء ..

ينتهي بنا المطاف عند الكوبري لأجد هذا الشبح وقد تجسد في تلك الجثة الهامدة المخضبة بالدماء , تكسوها أوراق الصحف , ينظر لي الهر آسفا , لكنني لا أفهم لماذا يأسف ..

لم تجذبني هذه الجثة الهامدة في شيء , أجدني غارقا في متابعة هؤلاء المحيطون بها , يمصمصون شفاههم , ويأسفون بحق لهذه الجثة , ويعبرون بذلك عن طريق التقاط بعض الصور , ثم يرحلون , والبعض الأخر مما لا يملكون الهواتف وهذا شيء نادر , يحصلون على نظرة متفحصة ثم يرحلون أيضا , لا أحد أهتم لأمرها حقا , مجرد إلقاء نظرة فضوليه وتحسر مفتعل وينتهي الأمر ..

وأخيرا جاءوا المعنيين بالأمر , دائما متأخرون لكنهم يأتون ونحمد الله على ذلك , هل نحن ناكرين للجميل كي ننكر معروفهم .

يلقون بالجثة داخل سيارة الإسعاف , دفعني الهر لا أعلم كيف بداخلها أيضا , حاولت كثيرا الخروج لكن بلا فائدة , سُجنت أنا وذلك الشيء , حتى الهر تركني , لابد أن تلك كانت مهمته أراد أن يجمعني بها , لكنني لا أريدها , وما دخله هذا السخيف , أنظر إليها .. ما السبيل للتخلص منك ؟

بعد أن أصابني الملل والتعب , وجدت الباب قد فُتح على مصراعيه , يمدون أيديهم كي يمسكوا بتلك الجثة التي يريد أن يتخلص من أمرها الجميع ..

أرأيت . لا يريدك أحد , اتركني وشأني هذا أفضل لك ..

بعد أن فارقته ببضع خطوات , فكرت أنه من الواجب أن أكون بجواره للنهاية , يكفيه وحدته هكذا وكأنه كلب أجرب يتحاشاه الجميع ..

عن كثب أراقبهم وقد انتهوا بها إلى المشرحة , ذلك المكان الذي يكفي أن تلفظ به كي ينقبض قلبك , فما الأمر حين تكون بداخله , أن تكون هذا المراد تشريحه , هذا البائس الوحيد الذي سيبيت وحده وسط كل هذا الخوف .

لا لن أشاركه , هو قد ذهب لحال سبيله , أما أنا أريد أن أحيا كما يحلو لي , هذا هو العدل الذي ابتغيه وفعلت ما بوسعي كي احصل عليه ..

أوبخ نفسي على أنانيتي تلك , واتجه إليه مُرعبا ومرتعدا , أجده وحيدا ملامحه تنضح بؤس وحزن وخوف , جسده أيضا ينضح برودة أصابني بعضا منها , لم يجد من يهون عليه هذا اليوم , لا نحيب , لا عويل , لا شيء .. الصمت من رافقه طيلة عمره حتى اللحظات الأخيرة .. وجدتني أنام إلى جواره , أطوقه بذراعي , أطبطب عليه كما طفل صغير , أنتحب .. انتحب كثيرا لأجلي وأجله .

يأتي أحدهم يرفع الملاءة عن وجهنا ثم يغمز لآخر يقف بعيدا , لا أعلم معنى ما فعله , لكنني شعرت بأنه شيئا سيء , لكنه حدث و لم أستطع منعه , فقط أشاهد وأنتحب لأجلي .. لأجلنا ..

حين انتهوا وضعوا ما تبقى مني في قطعة قماش بيضاء , يبدو أن هذا هو نصيبي من الكفن , , ولم ينسوا أن يصلوا علي , أنهم مؤمنين بحق .. وضعوني بجوار شيئا ما يشبهني في صندوق خشبي , ثم ألقوا بنا في عربة لتنطلق إلى غياهب المجهول ..

تزاحمنا جميعا في هذا الصندوق , هذان الشيئان في قاع الصندوق , ونحن المحلقان في أعلاه , فكرنا ما يجبرنا أن نذهب معهما , لمَ لا نستحيل طائران , وربما أسد أود أن أكون كذلك كي ألتهم الكثيرون , كي أخبرهم ماهية الألم , حتى يتذكروه كلما فعلوه بأحدهم ..

هذا الآخر. يوبخني على خيالي المبالغ فيه , ويخبرني أننا على مقربة من مثوانا الأخير , أزم شفتاي , لأدخل بعدها في صمت طويل .

لكنني أتحدث أحيانا عبر الظلام إلى أشياء لا أعلم ماهيتها , لكنها تبادلني أطراف الحديث بشغف لم أعتده يوما , حتى ذلك الهر اعتاد أن يلقي علي السلام بطريقته فوق رأسي تماما , يبدو أن هذه طريقة أخرى للري في العالم الآخر , لا يهم فما زال الأمر ليس بالسوء الذي تخيلت , فقد مر الأمر بسلام ..

# الرقص على الحافة

تنظر إلي في رعب ، تحاول أن تثنينِ عن السير على سور الشرفة ، لا اكترث لرعبها , استمر في السير مغمضة العين ، منتشية بحركاتي الراقصة ، لم يعكر صفو نشوتي سوى تلك الصرخات ، التفت إليها في ضجر.

-ما بكِ يا ياسمين ، ألا تملّين صراخك هذا؟

-مخطئة أنا لأنني أخاف عليكِ !( تتحدث كطفلة صغيرة)

-من ماذا ؟!. لا شيء مخيف ، نحن المخيفون حبيبتي.

-سما. أنتِ تعلمين أن هذه الكلمات تجعلني أخشاكِ. (حينها أستمع لها وأنزل عن السور )

-لا تبالي ، هيا ندخل.

في غرفتنا سرير ذو طابقين ، اعتلي السرير العلوي وتقبع ياسمين في الأسفل.

-ألا تخشين ما تفعلينه يا سما؟

-أنا لا أخشى سوى أشياء تافهة لا يخشاها الآخرون.

-أحيانًا أسمعك وأنا أفكر هل هذه سما التي لم تتجاوز العشرين بعد!

-لا تفكري كثيرًا يا ياسمين , تصبحين على خير.

أرتد إلى ذلك اليوم , وكأنه حلما لا يكف عن مراودتي ..

كنت فتاة صغيرة أقف أمام سرير في مستشفى , بجواري امرأة تحتضنني ، بينما أنا لا تفارق نظراتي المرأة النائمة على السرير ، يختبرون استيقاظها بهذه الصرخات والنوبات التي تفعلها.

يأتون على صوت تلك الصرخات ، يحملونها كمن يحمل ثورًا هائجًا ويحاول أن يحجم ثورته. أربعة رجال لم يستطيعوا أن يسكنوا ثورتها ، وضعوها على السرير ذي العجلات ثم أسرعوا. الجميع اختفى آخر الردهة ، ثم ظهروا من جديد ، وكأنهم بدلوها , نجحوا في تحجيم ثورتها وكسر روحها , جاءت مغيبة والدموع تسيل على وجنتيها في صمت مميت.

أخذتني المرأة الأخرى من يدي ، ثم ربتت على كتف المرأة النائمة وودعتها بنظرة حزينة ، وودعتها أنا بدموع ونظرة متسائلة!

في المنزل الجميع يتحدث ، ياسمين وأمها وأبيها. أما أنا انظر إلى الشرفة ، إلى سورها بالتحديد ، ثم انظر إلى صورة معلقة على الحائط تجمع تلك المرأة التي رأيتها في المستشفى والمرأة التي اجلس بجوارها الآن.

**في منتصف شهر يناير كما اليوم ، ذكرى ميلادي. جاء أحدهم من الخارج ثم احتضني بقوة وأخبرني أنني أصبحت بلا أم ، وسأسكن معهم وأصبح فردًا في عائلة جديدة.**

**هذا الرجل هو من يجلس بجواري الآن , تلك كانت هدية يوم مولدي , أصبحت ابغضه كما ابغض هذه العائلة...**

**لمَ يجردنا القدر مما نمتلك بعدما اعتدناه! لمَ لا يحرمنا إياه من البداية؟**

**مؤكد أن ذلك أيسر وأقل ألمًا. (لا يهم) قلتها لنفسي وأنا انظر للشرفة من جديد.**

**رداء وردي قصير يتطاير كما يتطاير شعري الأسود ، ضحكات هستيرية تصاحبها حركات راقصة تشبه حركات الرقص المعاصر التي يطلقونها على كل الحركات المتمردة التي تعبر عن ذاتنا بطريقة مجردة.**

**قدماي الحافيتان ثابتتان رغم أن أطرافهما بالكاد تلامس السور. تيأس ياسمين من الصراخ المستجدي الذي يبوء بالفشل في كل مرة فتأتي بأمها وأبيها.**

**-لا تفعلين هذا. إنه يوم ميلادك. ( تقولها الأم بعطف )**

**اضحك أكثر عند سماعي هذه الكلمة.**

**-ربما نفدت هدايا يوم مولدي. أريد أن أهدي نفسي شيئًا فريدًا.**

**-لكن هذا خطر. قد تفلت قدمك. ( يقولها الأب بجديته المعهودة)**

**-أنت شخص ساذج ، لست وحدك ، جميعكم ، هل تظنون أن أحدًا يموت صدفةً هكذا ، لمجرد انزلاق قدمه من فوق سور عالٍ! تبًا لخيالاتكم. لا يوجد شخص يموت وهو لم يرد ذلك. نموت عندما يتخلى عنا الآخرون ، وبعضنا يموت حين يتخلى عن ذاته أو تتخلى هي عنه ، الموت قرار.**

**أتوقف عن الحركات الرقصة ..**

**-دائمًا نقرأ أو نشاهد تلك اللقطة. أحدهم ألقى بنفسه ، تُرى بماذا شعر ؟ هل كان الأمر بطيئًا كتلك اللقطة (slow motion) كما يسمونها في السينما ، وظل يتذكر كل ما مر بحياته ، ماذا سيحدث إذا تذكر شيئًا جيدًا ؟ هل بإمكانه عمل (stop) ثم يعيد اللقطة من جديد ويتراجع عن رأيه ؟ الأفضل أن تكون لقطة سريعة ، يقفز ثم نجده غارقًا في دمائه على الأرض لكنه مبتسم لأنه لم يجد فرصة للندم.**

**-كفى يا سما. لقد أعطيتِ الماضي أكثر من حقه،لا بد أن تعيشي من أجل. ( ياسمين التي لا تكف عن الثرثرة )**

**أقاطعها وأنا ما زلت أوليهم ظهري.**

**-من أجل ماذا ؟ أنا أحيا الماضي وليس لي سواه.**

**-اتركوها هذه تصرفات. ( قالها الأب ودلف إلى الداخل )**

**-مريضة. أنا كذلك بالفعل. مثل أمي.**

**-المرء يكون ما يريده. وأنتِ لستِ مريضة.**

**تقولها ياسمين وهي تمسك بيدي فتنزلني عن السور ، ثم تقول .**

**-أريد أن أشاركِ الرقص يا سما. ألا تشتاقين إلى أيام كنا نتشارك فيها كل شيء؟**

**-أنتِ تخافين كثيرًا لكنني سأحملك.**

**نقف سويًا. تتردد ياسمين وترتجف في أول الأمر ثم نرقص سويًا. كشريكين اختبرا الكثير من اللحظات الراقصة.**

**انتهي من رقصتي فأجد نفسي وحيدة على السور ، اندهش ثم ابكي ثم اضحك ، انزل عن السور واستمر في الرقص مبتسمة ودامعة ، انظر إلى (سما ) وهي تحلق راقصة في الفراغ ، تبدو أكثر سعادة الآن!**

**أقف أمام الصورة أجدها صورة لي وأنا أتوسط والدي ووالدتي ، أتذكر الصورة السابقة والمرأة المريضة.**

**اجلس على المقعد ناظرةً إلى الصورة وإلى الغرفة التي يخرج منها. المرأة المريضة ، الوالد ، الوالدة التي لاحظت أنها تشبه كثيرا المرأة المريضة لكنها تبدو أصغر سنا ، سما التي بدأت أشك أنها أنا التي غادرتنِ للتو !**

# ابيض واسود

**وقف مكانه ساهما لا يدري ماذا يفعل , وهو يرى طائرته الورقية يمسك بها طائران أحدهما أبيض والأخر أسود , يبدو أنهما تجاذبا الطائرة كثيرا وبشده حتى كادت تتفتق , ثم قررا تركها , كان هو أيضا أصابه الرعب وقام بتركها ووقف مشدوها متصلبا .**

**افترش أرضية السطح وظل يتابع الاتجاه الذي اختفى فيه الطائران , لا يبدوان كالطير , شيئا غير مألوفا ليس من عالمنا هذا , أكان خيالا ! هكذا حدث نفسه .**

**يداخله يأس من ظهورهما ثانية , غير أن الظلام قد حل ولن يستطيع أن يبقى هكذا , يحثه على القيام أسرع صفير صديقه على السطح المقابل , يبلغه بالميعاد المتفق عليه كي يذهبا سويا , يشير إليه أن نعم ثم يلقي أخر نظرة إلى ذلك الفراغ الذي لم يفارق خياله .**

**ما أن ولى ظهره للسطح حتى هبطا الطائران , هيئتهما لا توحي بشيء , خليط بين البشر والطير , لذا فلنريح رؤوسنا وندعوهما طيرا ..**

**الطائر الأسود : كان يلهو والأمر جلي لمَ تحشر أنفك وتطيره من يدي ؟**

**الطائر الأبيض : وما العيب في اللهو هذا ليس من اختصاصنا .**

**الطائر الأسود : يبدو أنك أصبت بال (زهايمر) لمعاشرتك بني البشر , تذكر جيدا دورنا أن نسجل كل شيء .**

**الطائر الأبيض : أنت تتذكر لأن قلبك اسود مثل ملابسك .**

**الطائر الأسود : بل أنت الذي تنسى لأن عقلك مثل ملابسك .**

**يكادا يتعاركان لكن كلا منهما يعد من واحد إلى عشرة فيهدأ , يفترشا الأرض وينظران إلى البيوت , ثم يسرق نظرهما النجوم ولون السماء والقمر ينيرها .**

**يستلقي الطائر الأبيض ويتحدث بصوت هامس كمن أصابه حمى الرومانسية الفارغة التي يهذي بها البشر .**

**الطائر الأبيض : لم أدرك هذا الجمال من قبل , أتعلم , أنا أحسد بنو البشر هؤلاء .**

**الطائر الأسود : أعلم أنك خائب الرجاء , أنت أيها المغفل تحيى دون خوف وهذا أمر لو تعلم كم هو عظيم , لكنك غبي كعهدك دوما .**

**الطائر الأبيض : لكننا لا نحيا , وما يفيد عدم الشعور بالخوف ونحن لم نملك غيره , هل تعلم ما هو الشعور ؟**

يسهم الطائر الأسود ويمتعض بينما يقترب الطائر الأبيض محاولا دغدغته فلم يستجيب الطائر الأسود , فيحاول دغدغة نفسه فلم يستجب هو الآخر .. (يا الهي كم نحن تعساء ).

هل جننت يا أخي , لدينا عمل وأنت تهذي بكلام البشر وبؤسهم , أنت تعلم كم شيئا ضيعته علينا بسبب هذيانك هذا .. سوف يخصم لي أنا أعلم , سوف أطرد من عملي بسببك , وربما يكون حظي مثل ..... لا لن أجعلك تفعلها .

يمسك به ثم يحلقا سويا , حتى يلمحا المراهق وأصدقاءه , يهلل الطائر الأبيض لرؤية حماسة هؤلاء الصبية وهم يلعبون , يجلس على الهواء مقرفصا يراقبهم في شغف , بينما الآخر يدون ما يراه دون إغفال أي شيء . يبلغه صاحبه .

نعم . دون ضربة جزاء فوتها هذا الحكم , فأنا أتابع هذا الشيء منذ مدة وأصبحت أجيده أكثر منك .

يربع الطائر الأسود يداه وينظر له .. (وأنت .. ألم تدون شيئا )؟

لا فأنا في عطلة اليوم .

ومن منحك إياها ؟

أنا . ألم تقل أننا لم نخشى شيئا وليس لنا عقاب , إذا لم يفسد الأمر مجرد عطلة , يوم في العمر نقضيه هكذا ف أل لاشيء .

يسمع رنين هاتف إلى جواره , يلتقطه فأصحابه منهمكين في اللعب الآن , يقترب من صاحبه .

لقد وجدت بغيتك , أعلم أنك تعشق التدوين . هنا سوف تقضي عطلتك .

ينظر ممتعضا إلى القطعة الحديدية التي يقبض يده عليها , فيبتسم صديقه ويعطيه إياها قائلا .. ( استمتع ) ثم ينضم إلى الصبية في الملعب .

يمسك بالهاتف وينظر له بعين طفل تكتشف شيئا لأول مرة .

رأى الصبي الطائر وهو يشاركهم اللعب , لا أعلم حقيقة إن كان يراه أم مجرد طيف أو خيال وربما شعور , لم يملك أحد اليقين ولا حتى أنا !

لم يجد الصبي فرصة للاندهاش فكان عليه أن يكمل لعب حتى لا يخسر , وجده إلى جواره دائما , يمرر له الكره , يصد عن فريقه الهجمات , يبتهجان سويا عند إحراز هدف .

انتهى اليوم على السطح كما بدء , الجميع نيام , ألقى الطائر الأبيض بجسده على الأرض يريد أخذ قسطا من النوم فأخبره صاحبه ..

لا تصدق نفسك هكذا , العطلة انتهت يا صاحبي .

**يناوله دفتره وقلمه مخبرا إياه بأنه قد حان وقت العمل الذي لم ولن ينتهي , يسمع الطائر الأبيض صوت هاتف فيندهش , ليرتبك الطائر الأسود .**

**لقد أخذته تذكارا من أجل تدوين هذه اللحظة ..**

**يضحكان سويا حتى يحلقا في الفراغ حيث يختفيا من جديد .**

# جسد بلا خطيئة

**كنت أراقب من بعيد . فقط أراقب عن كثب كل ما يحدث داخل هذه الغرفة ، سريرها الأبيض المغطى بملاءة بيضاء ، والفتاة التي لم تتعد العشر سنوات التي ترتدي فستان أبيض قصير ، حتى رباط الشعر كان أبيض.**

**كانت ملاكا ، تجلس بجوار جدتها , التي تتجاوز السبعون لكنها قوية ..**

**رأيت الجدة تقترب من الطفلة ، وتحدثها هامسة. لم أسمع ما قيل ، ولكن وجه الطفلة أثار قلقي ..**

**تُرى ما هو الحديث الذي دار ، وما هذا المكان ؟.. لم ألحظ سوى الجدة وهى تربت على كتف الطفلة ، بعد إن أنهت حديثها ، الذي لم ترد عليه سوى ببعض الإيماءات ..**

**بعدها بلحظات ، جاء شخصا يرتدي ثوب أبيض ، ينظر إلى الطفلة بابتسامة خالية من الروح.**

**أخذ الطفلة من ذراعها ، وبين ابتسامته وحديث جدتها نظرة حائرة.**

**ذهبت معه وهي تفكر ما الذي يريده منها الطبيب ، فهي غير مريضة!**

**أعادني هذا المشهد إلى مشهد أخر يشبهه كثيرا ..**

**في يوم ، يقال عنه مشمسا وبديعا ، في بيت جدتي. بدأ اليــوم سعيدا على غير العادة ، قد تكون هذه أول مرة نلعب فيها أنا وبنات أعمامي بهذا الشكل ، لم نشعر بتلك السعادة من قبل .. وربما لأننا لم نجتمع هكذا من قبل .. و كأننا كنا نودع شيئا ما من طفولتنا.**

**قضينا معظم الليل حتى ساعات الصباح الأولى ، لا نعلم متى داهمنا النوم أو كيف ، ولكن ما أذكره جيدا هو كيف تم إيقاظنا .. وجدت جدتي توقظنا برقة لم نعتدها من قبل ، وأعطتنا بعض الحلوى ، بل دعنا نقل الكثير من الحلوى ..**

**ثم غابت جدتي لبضع دقائق , المكان خالٍ . لم يوجد سوى السكون ، وأصواتنا ونحن نتحدث ونضحك .**

**كان البيت واسعا , رغم صغر حجراته ، له ردهة كبيرة .. في آخرها تقف امرأة. أذكر ملامحها بدقة بالغة ، وكأنني رأيتها بعدد أيام حياتي. ذات بشرة سمراء ، عيناها واسعتان لدرجة ترهبك ، كانت ترتدي جلبابا فضفاضا ، وتضع على رأسها وشاح بطريقة تقليدية ، وما لم أنسه ، أنها كانت تحمل حقيبة بيدها ،طيلة فترة انتظارها لإذن جدتي ، وأنا أختلس النظر إليها وإلى حقيبتها الغريبة.**

لمحتني جدتي ، فأدخلتنا جميعا الغرفة ، ثم ذهبت لاستقبال هذه المرأة .. ظلتا تتحدثان ، وهما تختلسان النظر إلينا. وبعد ذلك جاءت جدتي ، وأخذت فاطمة ابنة عمي الكبرى .. كانت الفتاه ذات الاثنى عشر عاما ، جسدها بدأ يأخذ الشكل الأنثوي بعض الشيء ..

اهتمامي وفضولي في ازدياد ، ماذا تريد جدتي وهذه المرأة من فاطمة ؟ هل قامت فاطمة بفعل شيء ؟ الأفكار تجول بخاطري ، وأنا أرى جدتي تمسك فاطمة ، وتتجه بها نحو هذه المرأة ، ويدخلن حجرة في آخر الردهة ..

ما هذه الحجرة ؟ لم أجد أحدا دخلها من قبل! .. دفعني فضولي ، فتسللت حتى وصلت إلى شباك صغير يطل على تلك الحجرة ، ولكنه كان عاليا بعض الشيء ، فأحضرت كرسيا صغيرا ، اعتليته لأرى ما يحدث ..

رأيت غرفة لا تحتوى على أي نوع من الأثاث ، لا يوجد بها سوى الغبار ، والبيوت الواهية التي صنعها العنكبوت .. جلست جدتي وسط الغرفة ، وهى تتحدث إلى "فاطمة " ، والمرأة أمسكت حقيبتها وقامت بفتحها ، تستعد للقيام بعمل ما . بعد حديث قصير ، يبدو أن جدتي أقنعت "فاطمة " بما هي مُقدمة عليه ، فرأيت جدتي وهى تمسك ب"فاطمة " والمرأة تقترب وفى يدها شيء لم أتمكن من رؤيته ، ولكنى رأيت ملامح الفزع على وجه "فاطمة "، عندما جردتها جدتي من ثيابها .

اقتربت المرأة من فاطمة ، وهنا انقطعت متابعتي لماهية ما يحدث بالضبط .. حجبت تلك المرأة الرؤية تماما .. كانت هي من جهة ، وجدتي من الجهة الأخرى و "فاطمة" تتوسطهم. حاولت جاهده أن ألمح أي شيء ، ولكن محاولاتي كلها باءت بالفشل ... جاءتني صرخة غير متوقعة .. دققت النظر ثانية لأحاول فهم ما يحدث ، و إذا ما كانت هذه صرخة بالفعل أم خيل لي ذلك .. ولكنهما مازالا يحجبان الرؤية ..

جاء الصراخ ثانية ، ليؤكد لي إنها حقيقة لا تقبل الشك .صراخا ملحا , مستنجدا , ولكنه للأسف لم يجد من يهتم .. كان تائها في فضاء المنزل الواسع ، والغرفة المهجورة ..

نظرت باتجاه بنات أعمامي الأخريات .. مازلن داخل الغرفة .. كيف لم يسمعن كل هذا الصراخ ؟ أم سمعن الصوت وحبسن أنفسهن خوفا مما يجرى ..

أنهما يتحركان .. قد ظهر وجه "فاطمة " من جديد..، ولكنه لم يكن كما في السابق ، وكأنها تبدلت! خرجت باهتة ، الدموع غسلت وجهها الصغير ، نظرتها أصبحت يائسة ، وكأنها كبرت أعواما.

حملتها جدتي .. بدت وهى تحملها كأنها تحمل جسدا قد فارق الروح ..

**هرعت إلى غرفة العمليات لآخذ ابنتي ونبعد عن هذا المكان ، ولكنى وجدت الطبيب مرتبكا,حاول أن يمنعني من الدخول ، دفعته ودخلت .. لأجد ابنتي وقد تبدل لون فستانها الأبيض إلى الأحمر القاني ، مستلقية على السرير ، وقد لفظت أنفاسها الأخيرة. اقتربت منها محاولة لمسها , نظرتها تشبه فاطمة (لمَ لم تقاومين يا فاطمة ) .**

**ألتفت حينما شعرت بجدتي تربت على كتفي وتنتحب ! حملت ابنتي المتشحة بالدماء , أعطيتها لجدتي بنظرة تحدي تحاول جاهدة أن تحل محل الانكسار , كأني أردت أن أطلق كل صرخاتي دفعة واحدة .**

**- لقد تطهرَت يا جدتي !**

**نظرت الجدة إليها ، فاقتربت من الطفلة والدموع تملأ عينيها لأول مرة في حياتها . قبلت جبين الطفلة , حملتها بيدها المرتعشة ، وتذكرت معها كل الأجساد التي حملتها من قبل .. كان كل جسد يفقد شيئا ما.. لكن هذه المرة فقد كل شيء ..**

**الجدة : لقد كان طاهرا سلفا...**

**حررت دموعها أخيرا وهي تردد...**

**لقد كان طاهرا سلفا !!!!**

# يوم فُتح المعبر

وقفت مثل كثيرون ينتظرون فتح المعبر , كي يروا أقربائهم , اغلبهم يحملون أنية تحمل طعاما , شرابا , أوعية , وأدوية , بينما هي كانت تحمل شوقا إلى شاب رأته ذات مرة عبر الحدود , لا تذكر ملامحه , تذكر فقط شاله الفلسطيني , وخطواته العرجاء , وجلسته ناظرا عبر الحدود إليها أو إلى المجهول !

فُتح المعبر وانطلق الجميع مندفعا بما يحمله , وعبرت هي حائرة تتلفت حولها باحثة عن صاحب الشال , سألها أحد الجنود , عما تبحثين ؟ أخبرته أنها تبحث عن قريب .

حتى رأته أتيا من بعيد , نفس الخطوات العرجاء , ونفس النظرة ذات العيون النجلاء التي تخطف أنفاسها , جلس في مكانه كما رأته أول مره , بالقرب من الأسلاك الشائكة التي تفصل بين رفح المصرية والفلسطينية . اقتربت منه مبتسمة .

_يبدو أنك تحب هذا المكان ؟

يلتفت ببطء كمن لا يفزعه السؤال أو الصوت , لا بد أنه انجذب لصوتها الرخيم.يكتفي بنظرة دون رد .فتحدثه ثانية .

_كيف لا تعلم هل تحب شيئا أم لا ؟!

_لأنني كلما أحببت شيئا كان سبب ألمي , لهذا قررت ألا أفكر في هذه الأشياء.

_هذا يعني أنك تحبه . هل تعلم أن في هذا الاتجاه الأخر رفح أيضا ولكنها مصرية ؟

_الجميع يعلم ذلك .

تشعر أنه لا يود الحديث , لكنها لم تيأس , تجلس بجانبه وتنظر إلى الأسلاك الشائكة .

_هل تعلم أيضا أنني من رفح المصرية , لكنني أشعر أنني أنتمي إلى فلسطين أكثر من مصر .

_كيف ذلك ؟ هل يتمنى أي شخص أن ينتمي إلينا !

_أنا أيضا أشعر بالغربة هناك , لا انتمي لمصر التي أراها في التلفاز , أرى أناسا يتحدثون لهجة لا أنتمي إليها , يرتدون ملابس لا تشبهني , هنا يشبهني أكثر.

يبتسم وينظر إليها ..

_هل تريدين أن تري فلسطين , أم تكتفين برفح فقط ؟

تلمع عيناها وتنهض ممسكة بيده ..

_ فلسطين بأكملها .

**يسيران سويا ..**

**_لابد أن نأخذ طرق جانبية , قد تكون هناك مخاطرة.**

**تنظر إليه في سعادة وتحدي ..**

**_لا يهم . فأنا معك . هل هم السبب في ما حدث لقدمك ؟**

**_هم السبب في كل شيء , لا أريد تذكرهم الآن.**

**سارا معا في الحي القديم , لمح بريق عيناها ونظرة الحب التي تنظرها إلى كل شيء , أدرك أن الحياة تستحق , أن هناك ما هو جميل وسط هذا القبح. سمعا دوي رصاص في الجوار , اختبئا في منزل قديم .**

**_هل ما زلتِ تحبين فلسطين ؟**

**_وهل كرهتها لذلك ؟**

**_أنها بلدي لا أستطيع أن أكرهها.**

**_وأنا أزيد عليك أنني عشقتها , كيف أتخلى عن معشوقتي لأنها تجلب المخاطر !**

**_هيا , لقد هدأ الصوت , لابد أنهم ابتعدوا , يجب أن تعودي إلى بلدك الآن .**

**_هل ستأتي معي ؟**

**_لماذا ؟**

**_لترى نصفك الأخر , رفح الأخرى .التي تنظر إليها دائما عبر السلك الشائك .**

**يبتسم**

**_ هل تعلمين أن رفح الأخرى تلك , لي معها قصة .**

**_كيف ؟**

**_هيا لنذهب , هناك سوف يكون لها سحرا خاصا.**

**يجلسان أمام السلك الشائك , تلمع عيناه حيث ينظر عبر الحدود.**

**كنت أشاهد فتاة , أجزم أنها فلسطينيه ,وُجدت هناك على سبيل الخطأ , شعرها الغجري , جلبابها , حتى أنني كنت اسمعها تدندن أغنيتي المفضلة . كنت أود أن أتجاوز هذا السلك الشائك وأراها عن كثب , لكنني تذكرت إصابتي , لهذا تراجعت وفضلت متابعتها عن بعد.**

**قبل أن ينتهي من كلماته , يراها أمامه , ترفع الوشاح عن شعرها الغجري وتبتسم.**

**_وعيونها يا طير وتقول فنجان . فنجانه بالقهيوة ممتلية .**

**يفتر ثغرها عن سن ضاحك . فيكمل هو .**

**_وسنونها يا طير وتقول مرجان , مرجانه على اللولو مختلية.**

**_سأراك يوما ما في رفح الأخرى .**

**هكذا قالت وابتعدت**

**_بينما نجتمع في رفح تلك التي تليق بكِ أيتها الغجرية الفلسطينية .**

منذ ذلك اليوم تقف كما هي تدندن أغنيته , وهو يجلس في مكانه يلبي نداءها وكأنهما ثنائي لروح واحدة .

# تذكر دائمًا أنني أحبك

**تجلس على أرضية الغرفة تنظر إلى تلك الأشياء التي قامت بوضعها حولها. شفرة حادة ، أقراص مهدئة ، حبل ، مشروب روحي! تحدث نفسها ساخرة ..**

**لا أعلم كيف يقتنعون أن هناك مشروبًا للروح ، مأساتنا في تلك الحياة هي ظمأ الروح ، ليت هناك مشروبًا لها ، لكان الأمر يسيرًا ولم يلجأ أحد إلى تلك الأشياء ..**

**تنظر حولها ، ثم إلى نافذة تطل على غرفتها ، لتجد شابًا و فتاة بين ذراعيه يقبلها.**

**تذكر حين كانت هي من يطوقها بذراعيه.**

**تبكي وهي ما زالت تنظر إلى النافذة التي ابتعد عنها الشاب والفتاة ، تمسك الزجاجة التي تحوي ما يسمونه المشروب الروحي ، لتروي ظمأها!**

**قبل الآن بلحظات كانت في الفراش ، يد زوجها تطوقها ، ورأسه تستند على صدرها ، يبدو كطفل في حضن أمه.**

**تذكر آخر كلمات له قبل أن يحتضنها وينام هكذا.**

**-لقد آلمتك كثيرًا ، لكنني سأعوضك عن كل شيء ، لم أكن أدرك أنني أحبك بهذا القدر.**

**لم ترها مجرد كلمات بل شعرت بها في لمسته وفي عينيه الدامعتين ، وفي تشبثه بها في هيئة حضن. كلمات وشعور تمنت كثيرًا أن تختبر وجودهما من قبل لكن هو هكذا دائمًا. متأخر !**

**تذهب إلى الشرفة تنظر إلى الطريق ، لا. هذه طريقة منفرة! تنظر خلفها إلى الحبل. ثم إلى سقف الشرفة.**

**هل ينتهي أمرك هكذا ؟ رأس مدلى ونظرة بائسة .. لا أريد هذا أيضًا.**

**إذًا إنها الشفرة. تتساقط بعدها الدماء تاركةً بركة صغيرة تؤكد أن هناك روحًا قُتلت قبل وجود تلك الدماء بكثير ، وأنها مجرد إثبات فقط!**

**تتذكر طفلها ذا الخمسة أعوام. لا تريده أن يرى هذا المشهد الدموي.**

**حان الآن وقت الرسالة التي تُكتب عادةً قبل الموت. لماذا يكتب شيئًا من يقرر الرحيل ؟ ستفيد من كلماته وهي لم تفد صاحبها. ربما يريد أن يخبرنا سر اللعبة وعلينا أن نقرر نستمر بها أم لا ، أو يريد أن يعاقبنا على عدم الشعور به . لكنه في نهاية الأمر يكتبها ، لا يعنيه ما ستفعله بها. لقد ذهب إلى مكان يأمل أن به راحة أبدية أو مشروبًا يروي ظمأ الروح!**

**أخذت علبة الأقراص المهدئة وأفرغتها في فمها وهي تنظر إلى النافذة.**

**ما أصعب تلك الخطوات حين تكن واثقا أنها أخر ما تفعله , تكون وئيدة وثقيلة كأنك تسحب خلفك حجرا يضاعف حجمك , هذا الحجر ربما يكون أحلامك الضائعة وربما خطاياك .**

**بهذه الخطى سارت نحو حوض الاستحمام ، تدهشها وتبث بنفسها الرعب رؤية المياه وكأنه المحيط وليس حوض , تعلم أنها تخشى المياه كثيرا , لذا قررت أن يكون هذا الخوف أخر ما يربطها بهذه الحياة , تمددت بداخل الحوض , تكسوها المياه , تنظر إلى الأعلى. ترى ذلك الاتساع يضيق في عينيها حتى يختفي. تسمع أصوات مختلطة. بكاء ، نظرات حب ، آهات عشق ، ضحكة طفل. رأسها يغص داخل الماء وهي ما زالت تنظر إلى الفراغ والفقاعات التي ترسم ما مرت به حتى هذه اللحظة.**

**يترك الطفل يد أبيه ويجري إلى الداخل فيجد ورقة يفتحها (تذكر دائمًا أنني أحبك) ينظر إلى أبيه الذي انطلق باحثًا عنها ، عن تلك التي تذكر وجودها حين قررت الرحيل!**

# اتجاه معاكس

**ثبتت عينا كلانا , حين ناولته المثلجات , ردتنا هذه النظرة الطويلة لذلك اليوم الذي كنا أناس أُخر ...**

**اليوم الدراسي الأول في عامنا الدراسي الأول أيضا , أخذني أبي إلى المدرسة مبكرا , أكاد اجزم انه كان أول أب في هذا الشارع الفسيح الذي بالكاد تنيره أشعة الشمس الأولى وهي تفتح أعينها للدنيا , لم ينم ليلتها , فرحا بدخولي المدرسة.**

**ظل ممسكا بيدي كأنني سأطير , بعدها فُتح باب المدرسة وهرع أبي إلى الفصل , مصرا على جلوسي في أول مقعد , وأنا لا أرى أهمية لذلك الأمر , لكن هذا آثار غضبه , كيف لشخص أن يرفض المقعد الأول , جذبني من ذراعي حتى شعرت أنه سينخلع في يده , ثم أجلسني على المقعد , ظل بعدها محدقا في حتى يطمئن أنني استكنت لرغبته , بعدها رحل ..**

**نظرت إلى الخلف رأيت طفلا في أخر الصف منتحبا , ذهبت إليه مهونا وسائلا عن سبب بكاءه , ضحكت حين عرفت أنه سبب سخطي , هو يريد ما لا أريد , أجلسته مكاني وتمتعت بتلك النشوة , نشوة تنفيذ رغبتي , الجلوس في أخر الصف ..**

**لا أبالِ لأي شيء سوى التحديق في البشر من الخلف , أيضا ذاك المدرس الذي أراه هنا بشكل أوضح , دون أن يلتفت هو لوجودي , أرى ذلك الطفل المبتهج بنظرة المدرس له , يشعر أنه شرف أعطاه له الصف الأول , جميعهم وجهتهم المدرس الذي يرتج جسده كلما قال كلمة , يسبقه كرشه وعصاه , ينظر من تحت نظارته للصف الذي أجلس فيه , يرتعد طفل بجانبي فيختاره هو , يبدو أنه يشم رائحة الخوف !**

**أخذنا الوقت ورأيت انتحاب الأطفال لافتقادهم آباءهم , وربما لكونهم يرون هذا سجنا فُرض عليهم دون أدنى ذنب .**

**أخبرت أبي , لن اذهب إلى المدرسة مجددا , اخذ يضربني ويذهب بي كل يوم إلى المدرسة ليضعني في المقعد الأول , بعدها أُجلس هذا الذي يراه مكانه , ثم أذهب خلف أبي , أجوب الشوارع , أراقب المارة , خاصة أقفيتهم , أرى فيهم قطيع لا أريد أن أكون في معيته , لذا أجاب جسدي بما أريد , التف وسار معاكسا لاتجاههم .**

**لم أترك المدرسة وأيضا لم أكترث لها , أذهب حين أرغب بذلك , أرى صديقي الذي تبادلت وإياه الأدوار , وهؤلاء المعلمون الذين أراهم الآن دون غصة أو كراهية , على العكس أشفق عليهم أحيانا , منهم من رأيته في مهن أخرى تبعد كل البعد عن التعليم , أرى هؤلاء وقد فهموا الأمر كما فهمته ,وهل يوجد في هذا البلد علما كي يوجد ناقلون له !**

أبهجني أمر أنني فهمت ذلك منذ البداية , أقرأ لنفسي , اخصص يوم لكل مهنة , ورداء وشكل لها وربما اسما , اليوم كنت سعد بائع المثلجات الذي يعشقه التلاميذ , ويهرولون إليه بعدما يخرجون من المدرسة , ليس حبا في طعمه الرائع , بل لحكمة سعد في كل شيء وتفرده الذي يجعلهم يظنونه ساحرا .

كنت سعد حتى رأيته , ذاك الذي تبادلت معه حظي ومكاني , أصبح هو مدرس في نفس المدرسة , وأصبحت أنا بائع المثلجات خارجها , لم اسأل نفسي من منا على حق , لكنني ان عاد بي الزمن سوف افعل ما فعلت , هل يفكر هكذا أيضا , أم انه أسعده دوره في القطيع .. رأيته عابسا وهو يناول طفله المثلجات , ثم سار بخطى بطيئة أعقبها بنظرة لي , فهمت منها ما أردت وأسعدني , حينها أمسكت بالعربة مغردا وخلفي التلاميذ الذين القوا بحقائبهم في الهواء , مشكلين معي طابورا لا ينتهي .